العوامل المؤثرة على الحياة العلمية في بغداد في العصر العباسي الأخير (622-656هـ/ 1225– 1258م)

رفعة بنت سعيد بن على الغامدي

الملخص

أثّر عددٌ من العوامل على الحياة العلمية في بغداد خلال العصر العباسي الأخير، منها العوامل الجغرافية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والدينية. ولقد كان لهذه العوامل والمؤثرات – مجتمعة – آثارٌ إيجابية وأخرى سلبية ساهمت في التأثير على الإنتاج العلمي،وعلى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للعلماء، سواء ممن كانوا داخل العراق واتجهوا صوب العاصمة، أو الذين كانوا يقيمون في كافة أمصار العالم الإسلامي، ووفدوا باتجاه بغداد، للمساهمة في نهضة علمية خطّط لها خلفاء العصر العباسي الأخير، في محاولته لبث الروح في جسد الخلافة، ومنعها من الانهيار أمام محاولات عاتية تستهدف هذا الانهيار جاءت من أطراف عديدة.

Factors affecting the scientific life in Baghdad in the late Abbasi Era (622-656 AH) (1225 -1258 AD)

Rif'at Bint Sa'eed Bin Ali Al Ghamdi

Abstract

The recent study deals with a number of factors that put its impact on the scientific and intellectual life of Baghdad during the Last Abbasid era. These factors are of various types; geographical, political, military, economic, social and religious. All of them have, separately or collectively and positively or negatively, influenced the scientific and intellectual production, and the social and economic conditions of Baghdad's scholars, whether who came to it from other places of Iraq or from other parts of Muslim world. Each of these scholars came to produce his contribution in a renaissance by which the last Abbasid Caliphs tried to renew their central authority and prevent their government from collapse, and finally, to save their state from attempts of their various enemies to put an end for it.

حظيت مدينة بغداد بموقع جغرافى مميز باعتبارها بوابة المسلمين المشارقة لحج بيت الله الحرام في مكة المكرمة، والزائرين لبيت المقدس، وليس هذا فقط، بل كان مقراً للعلماء المرتحلين، ونقطة انطلاق لهم لاستكمال رحلاتهم العلمية إلى أنحاء العالم الإسلامي إلى جهة الغرب، فكان الحجاج يستقرون في بغداد أياماً للراحة وفيهم العلماء الذين يلتقون بأقرانهم من علماء بغداد، فيتبادلون المصنفات، ويتحاورون في مختلف التخصصات العلمية [1]. وثمة عوامل عديدة أثرت على الحياة العلمية في بغداد وعلمائها، سواء المقيمين منهم أم الوافدين عليها.

أولاً – العوامل الجغرافية:

كان للعوامل المناخية والطبيعية أحياناً تأثيرات سلبية على أهل بغداد عامة، ومن فيهم العلماء. فالفيضانات والسيول التى تعرضت لها بغداد بشكل متكرر وقتذاك كان لها تأثيراتها السلبية في إغراق الشوارع والمنازل بالمياة، ومن ثم إرباك حركة الناس في الشوارع، وامتد هذا التأثير بالطبع على مؤسسات التعليم، وأنشطة العلماء والفقهاء وطلاب العلم عموماً.

وما تذكره المصادر عن تكرار الفيضانات والسيول لمؤشر واضح على ما أحدثته من تداعيات اقتصادية واجتماعية، ومن ثم علمية وثقافية. ففي سنة (622هـ/1223م) وقع فيضان دجلة وأحدث نوعاً من الدمار، وأعاق حركة الناس في بغداد، فهو ما دفع بعض العلماء للمشاركة في أعمال الإغاثة، ونجحوا بمشاركة الأهالي في إحكام إغلاق خندق بغداد من ناحية باب كلواذى[2][3]. ويشير ابن العبري (ت 685هـ/1286م) إلى بناء الخليفة الظاهر بالله سنة (622هـ/1226م)[4] لجسر على نهر دجلة، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى التساؤل عن هذا الجسر، هل كان موجوداً وانهدم بسبب الفيضان، أم أن الخليفة قد بناه حديثاً[5]. كما تروي بعض المصادر عن إغارة الجراد على بغداد عام (622هـ/1226م) وهلاك جانب كبير من المحصولات والزراعات، وهو ما أثر بالسلب على الحالة الاقتصادية، ومن ثم على الحياة العلمية أيضا.

وفي سنة (651هـ/1253م) زادت دجلة زيادة عظيمة، فغرق نتيجة هذه الزيادة كثير من مزروعات ومحاصيل بغداد، وغيرها من المدن والقرى المجاورة؛ وتواترت الغيوث حتى أن الماء في الدروب أصبح كالغدران[6]، وفي سنة (652هـ/1254م) وقع ببغداد وأعمالها غيث كثير، تبعه بَرَدٌ كالبندق، وأظلم الجو، فزادت دجلة عقب ذلك، وغرقت كثير من الزروع، وزادت الفرات زيادة عظيمة، فغرَّقت "عانة"[7]، و"الحديثة"[8]، و"الفلوجة"[9]، وانفجرت كافة السدود الفراتية وغرقت الزروع[10]، وفي سنة (653هـ/1255م) وقعت غيوث كثيرة بالموصل

وبغداد، وزادت دجلة زيادة عظيمة غرَّقت الكوفة وأعمالها، وأحاط الماء بجامعها وبلغ النجف، ثم هبت ريح عاصفة ألقت زيادة عن ثلاثة آلاف نخلة من نخيل الكوفة، وأتلف بالغرق نحو سبعين ألف نخلة، والتقى ماء دجلة والفرات[11].

ويبدو أن المصائب على بغداد في هذه المرحلة لم تأت فُرادى، فمنذ العام (575هـ/ 1125م) لم تشهد بغداد هذه السيول الشديدة، وبالكاد أوردت المصادر سيول متفرقة كل عدة سنوات، باستثناء السنوات (651هـ/1253م، 652هـ/1254م، 653هـ/1255م)، ويورد المؤرخ المجهول في الحوادث الجامعة أن فيضانات سنة (653هـ/1255م) أغرقت دار الخلافة والدور الشاطئية لدجلة والفرات ومن الجانبين، وانتقال الناس من دورهم، حيث تضاعفت أجرة السكن، وغلت الأسعار، وتعذرت الأقوات، وغرقت نواحي "دجيل"[12]، ونهر عيسى[13]، ونهر الملك[14]، وتهدمت الجوامع والمساجد كجامع المنصور، وربط كثيرة، وجامع المهدي بالرصافة، والعديد من الجوامع والمساجد الأخرى[15]، ويروي كتاب الحوادث الجامعة عن شاهد عيان أن عدد المتهدم من البيوت والمباني المختلفة قد تجاوز اثنا عشر ألف وثلاثمئة ونيفاً وسبعين داراً[16].

ثم يوالي المصدر استكمال صور الدمار الذي حل ببغداد قبيل الاجتياح المغولي[17] فينقل عن فيضان (654هـ/1256م) أنه كان الأسوأ ربما في تاريخ بغداد، إذ أحاطت المياه ببغداد، وغرق جانباها، وهَدَّم دوراً كثيرة، وامتلأت أسواق الجانب الشرقي، وخرج الماء من حيطان الدور والمنافذ، والآبار، وامتلأت دار الخلافة، وقد انتقل من بها إلى الغرف العلوية والسطوح، وتعذر الوصول إلى دار الخلافة إلا في سفينة، أو عن طريق السباحة في مياه الفيضان، وغرقت المدن العديدة حول بغداد[18].

ومن الملاحظ أن ما تعرضت له بغداد من كوارث السيول والفيضانات خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى لا يمكن مقارنتها بما شهدته خلال الشطر الثاني منه. ففيضانات أعوام 651هـ، 652هـ، 653هـ، 654هـ كانت الأكثر سوءً نظرا لشدتها وتعاقبها. ومن ثم إذا كانت الفيضانات الأولى قد أثرت على الحياة العلمية جزئيا، فإن الأخيرة عطلت الأنشطة التعليمية بشكل شبه كامل نتيجة تهدم المؤسسات التعليمية كالجوامع والمساجد ودور الكتب والربط الصوفية، مما أثر بالسلب على أداء العلماء وطلاب العلم.

ثانياً: العوامل السياسية والعسكرية:

(أ) العوامل الداخلية: وتتمثل هذه العوامل في:

1- ضعف خلفاء الخليفة الناصر:

بعد وفاة الخليفة الناصر بويع لولده أبي نصر بالخلافة عام (622هـ/1225م)، ولقب بالظاهر بأمر الله[19]، ولم يعمر طويلاً، فقد توفي في منتصف رجب من السنة التالية (623هـ/1226م)[20]، وقد حاول الخليفة الظاهر الإحسان إلى الناس، وفرَّق الأموال، وأبطل المكوس، وأزال المظالم[21].

وبعد الخليفة الظاهر تولى الخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور، ولُقّب المستنصر بالله. وكان شاباً نشيطاً يميل إلى العلم؛ لانه نشأ نشأة علمية، وكان مقرباً إلى جده الخليفة الناصر، كما أنه ترعرع في عصر الفتوة[22]، والشعور بوجوب استقلال قرار دولة الخلافة، والاعتماد على العلم ورعايته، والاستعانة بالعلماء بتعيينهم في الوظائف المهمة في الدولة، وذلك للاستفادة من علمهم في خدمة دار الخلافة، فأبقى على الوزير القُمي؛ مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبدالكريم، لأنه كان كان خبيراً بأدوات الرياسة، عالماً بالقوانين، عارفاً بإصلاح الدواوين، خبيراً بالحساب، وله معرفة بالأدب، راوياً لطائف الأخبار، وكان أول أمره قد مارس أعمال الإدارة في بلاد العجم[23]، ثم ورد إلى العراق ورآه الخليفة وأعجب به، وأبقاه في بغداد، حيث وزر لثلاثة خلفاء (الناصر، والظاهر، والمستنصر)[24].

كذلك؛ قلَّد الخليفة المستنصر نقابة العباسيين[25] إلى مجد الدين؛ أبي القاسم هبة الله ابن المنصوري[26] (ت635هـ/ 1237م)، فلما توفي قلَّد بعده بهاء الدين أبا طالب الحسين بن المهتدي بالله[27] (ت642هـ/ 1244م)، إلى آخر أيامه، وقلَّد نقابة العلويين[28] إلى قطب الدين أبا عبدالله الحسين ابن الأقساسي إلى آخر أيامه[29] (ت641هـ /1243م).

كما استقضى الخليفة المستنصر عماد الدين أبا صالح؛ نصر بن عبدالقادر[30] (ت633هـ/ 1236م) ثم عزله، واستناب في القضاء شهاب الدين أبا المناقب؛ محمود الزنجاني (ت656هـ/ 1258م) [31] ثم عزله، وقلَّد القضاء عماد الدين؛ أبا المعالي الواسطي (ت639هـ/1241م)[32] ثم عزله، واستقضى كمال الدين بن اللمغاني[33] إلى آخر أيامه (ت649هـ/1251م) [34].

وأقرَّ الخليفة المستنصر أبا نصر ابن الضحاك (ت 627هـ/1230م) [35] في أستاذية دار الخلافة[36] إلى أن توفي، وولَّى بعده وكيله نصر الدين ابن الناقد (ت642هـ/1224م) [37]، إلى أن نقله إلى نيابة الوزارة، ثم ولَّى مؤيد الدين ابن

العلقمي إلى آخر أيامه[38]، (ت656هـ/1258م)[39].

وأقر على صدرية ديوان الزمام[40] تاج الدين أبا الحسن ابن الأنباري[41] (ت631هـ/ 1234م) إلى أن توفي، وولّى عوضاً عنه فخر الدين ابن المخَرِّمي (ت652هـ/1254م)[42]، وكان الآمر في عساكره وأخباره وقوّاده شرف الدين إقبال الشرابي (ت653هـ/1255م)[43].

كما يشار إلى اتخاذ الخليفة المستنصر سلسلة إجراءات للسيطرة على دار الخلافة، فلم يول كاتباً للإنشاء في الديوان، لأن مؤيد الدين القمي (ت670هـ/1272م) [44] كان مخاطباً بولاية ديوان الإنشاء[45]، ثم صار نائباً للوزارة، فلما استوزر الخليفة المستنصر نصير الدين ابن الناقد جعل من مهامه الإشراف على ديوان الإنشاء، ورتّب بين يديه كاتباً للعدل هو ابن الصباغ الأسدي (ت727هـ/ 1319م) [46].

واهتم الخليفة المستنصر بعمارة المساجد والأضرحة، فأنشأ سنة (626هـ/1229م) الرباط المستجد بدار الروم[47] في بغداد، وأسكنه جماعة من الصوفية، وفي السنة نفسها تكامل بناء المسجد المعروف بقمرية بالجانب الغربي من دجلة، وأمر أن تنقل له الفرش وآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع، وجعل في المسجد خزانة للكتب، وحمل إليها كتباً كثيرة[48].

وتقدَّم الخليفة المستنصر إلى نائب الوزارة بعمارة مساجد الكرخ، ورتب لها الأئمة والمؤذنين، وأمر بعمارة جامع البصرة، وأنشأ مارستاناً فيها، واشترط أن تكون جميع نفقاته من خالص أمواله، ووقف عليه أوقافاً وفيرة[49].

وعلى الرغم من هذه الإصلاحات التي قام بها الخليفة المستنصر، وبنائه للمدرسة المستنصرية، إلا أنه اعتزل بعد ذلك في أخريات أيامه، فلم يعد يظهر للناس، وغلب عليه كبار مماليكه فتحكموا فيه، وفي دار الخلافة، وفي صنع القرار، وبلغ من عزلته أنه لما جاءه الموت لم يشعر بوفاته إلا بعضٌ من الخدم الذين طُلِبَ إليهم عدم إفشاء السر، وكان مصدر هذا التحذير للخدم هو شرف الدين إقبال الشرابي قائد الجيش، وهو ما دفع بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن وفاته ليست طبيعية، وأنه تم فصده بمبضع مسموم[50].

ومهما يكن من أمر.. فقد تناول المؤرخون أخلاق وصفات الخليفة الأخير للعباسيين بالمدح والثناء، ولكنهم في الوقت نفسه لم يضنوا علينا بإظهار بعض الصفات التي لا تؤهله للحكم، والتي تنذر بفشله في إدارة شؤون البلاد، ومما ذكروه في هذا الصدد أنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك عديم اليقظة، كثير الغفلة، قليل البطش، محباً للهو، يقضي معظم أوقاته في سماع الأغاني والتفرج على المساخر[51].

هذا إلى جانب أنه كان بخيلاً لدرجة شديدة – كما ورد في معظم مصادر الدراسة-، ودلَّ على ذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك[52]، كان على خلاف مع الناصر يوسف صاحب حلب[53]؛ فذهب إلى الخليفة المستعصم وترك عنده وديعة تزيد قيمتها عن مئة ألف دينار[54]، على أمل استردادها في الوقت المناسب، ولما تحسنت الأحوال طالب الخليفة بالوديعة مرات عديدة، ما دفع الخليفة إلى المماطلة، ثم "أرسل مَنْ حاسبه على ما وصله في ترداده إلى بغداد من المضيِّف مثل اللحم والخبز والحطب والعلف والتبن.. وغير ذلك، وثمَّن عليه بأغلى الأثمان وأرسل إليه شيئاً نزراً، وألزمه أن يكتب بخطه بقبض وديعته وأنه ما بقي يستحق عند الخليفة شيئاً، فكتب خطه بذلك كرهاً وسار عن بغداد"[55].

وقد انتقد مؤرخ آخر الخليفة المستعصم، فقال: "ولو لم يكن فيه إلا ما فعله مع الملك الناصر داود في أمر الوديعة لكفاه عاراً وشناراً، والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعده قصائد؛ كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله، فقد كان من أجداد المستعصم من استفاد منه آحاد الشعراء أكثر من ذلك"[56].

كما لم ينس ابن طباطبا (ت709هـ/1309م) أن ينال منه بأنه "كان يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة"[57]، ورماه السيوطي (ت911هـ/1506م) بالضعف، فقال عند كلامه عن الخليفة المستنصر ما سبقت الإشارة إليه من رغبة الحاشية "في" توليته، ورغبتهم "عن" تولية أخيه الخفاجي[58]،

وعلى الرغم من اعتماد مؤرخي الفترة في نقدهم للخليفة المستعصم على الجوانب الخلقية؛ إلا أن هذا القدح – في رأي الباحثة – لم يأت من فراغ، فقد دفعت الأمة الإسلامية قاطبةً ثمن هذا الإهدار لقيمة ومغزى الخلافة العباسية.

2- الحالة الداخلية في عهد الخليفة المستعصم:

قياساً بفترة حكم الخليفة الناصر- وهي الزاهية في العصر العباسي الأخير- فقد انحدرت الخلافة انحداراً كبيراً مع بدايات العام (640هـ/1242م)، حيث تولى الخليفة المستعصم بعد عقد من الزمان كان الخليفة المستنصر فيه خارج دائرة الفعل في ظل سيطرة حاشيته عليه حتى الوصول إلى موته المهين أو قتله، فلقد ساءت حالة بغداد بسبب ضعف الخليفة الذي جر الويلات الكثيرة عليه وعلى العباسيين وعلى أهل بغداد وعلى العالم الإسلامي قاطبةً، فقد كانت قلة دراية وحنكة الخليفة؛ واستخفاف أعوانه به؛ وطمعهم فيه؛ وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه؛ من أهم العوامل التي مهدت للاحتياج المغولي، ومن ثم السقوط المدوي، حيث كثرت المؤامرات والفتن وتفشت القلاقل، من مثل:

- الصراع بين كبار أفراد الحاشية:

فعند موت الخليفة المستنصر اتفق الدويدار الكبير (ت653هـ/1255م) [59] مع الشرابي على الإتيان بأبى عبدالله ابن المستنصر من مسكنه سراً، ولقبوه "المستعصم بالله" لما يعرفانه عنه من ضعف وانصراف إلى اللهو، كي تتهيأ لهما الفرصة للاستئثار بالحكم من وراء ستار الخليفة، مع استبعاد الخفاجي أخى المستنصر الآخر لأنه كان قوي الشكيمة، وقد سارت الأمور كما يتمنى الدويدار لمدة سنتين في ظل وزارة ابن الناقد، فلما تم استيزار ابن العلقمي سنة (642هـ/1244م) تغيرت الحال نظراً لتفويض الخليفة له في كل شيء، وهو ما ضيع على الدويدار فرصة التدخل في كل كبيرة وصغيرة[60].

وإزاء تعنت ابن العلقمي ضد الدويدار، وسدَّه كل منافذ السيطرة داخل دار الخلافة؛ فقد سعى الأخير إلى ممارسة الإرهاب في محاولة منه لإبعاد الوزير ابن العلقمي، فحدث أن جمع حوله مجموعة من العيارين والشطار[61] وراح يهدد الأمن، ولما أعيته هذه الطريقة راح يدبر المؤامرات لخلع الخليفة نفسه وإقامة آخر مكانه، ومن جهته كان الوزير ابن العلمقي فطناً يقظاً لكل ألاعيب الدويدار، وأعلم الخليفة فطلب منه أن يقضي على مدبرها، وهكذا صار الطرفان على محك المواجهة تحت عين وسمع الخليفة[62].

كان اللافت للانتباه أن النجاح كان للدويدار، لأن الخليفة خشي مؤامراته، ودبَّ الرعب إلى قلبه حين رأى أتباعه من الأتراك والعيارين والشطار يقتربون من باب دار خلافته، ويفتعلون المشكلات في شوارع بغداد وأسواقها، لذا فقد استدعاه الخليفة وتملَّقه، وأكد له أنه موضع ثقته، وأنه لا يسمع ما يُقال له عنه، وليت الأمر وقف عند هذا الحد؛ بل وصل إلى تمادي الدويدار في غيِّه، وزاد من تآمره أن بلغ الخليفة استعداده لمهاجمة قصر الخلافة، ولم يجد الخليفة المستعصم بُدَّاً من أن يكتب له بيده إقراراً ذكر فيه أن ما وصله من معلومات هي من قبيل المكائد، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة، وتخلى عن الوزير ابن العلقمي[63].

وتفسِّر الدراسة هذا الصراع بين الوزير ابن العلقمي والدويدار من جهة؛ وهذا الموقف المشين من الخليفة من جهة أخرى بأنه من أسوأ ما وصلت إليه الخلافة العباسية عبر تاريخها، حتى في ظل الاحتلال البويهي الشيعي الزيدي، أو في ظل الهيمنة السلجوقية السُنِّية المتشددة، وترى أن وضعاً كهذا كان لابد أن يؤدي إلى ابتهاج أهل بغداد بتوقف أنشطة العيارين والشطار العدائية ضدهم بإيعاز من الدويدار، فلما قرَّبه الخليفة وترك له الأمر؛ لم يعد يحتاج إلى ضغوط إضافية على الخليفة، وقد صار طوع أمره.

ولكن في اتجاه آخر لا ننسى أن ابن العلقمي الشيعي ما كان ليسكت إزاء هذا التجريد من المهام والتقليص في الصلاحيات، فأراد أن يتحين الفرصة تلو الأخرى لاسترداد صلاحياته والثأر لنفسه، فهل تواصل مع المغول؟، وهل عندما هاجم المغول بغداد لم يخلص في الدفاع عنها؟، وهل أخلص النصيحة للخليفة أثناء الحصار المغولي؟، وما تأثير كل هذا على الحياة العلمية في بغداد آنذاك؟

- حالة الجيش:

نظراً لتقلص جغرافية دولة الخلافة العباسية؛ فقد كان من البدهي أن يضعف الجيش العباسي في أيام الخلفاء العباسيين المتأخرين، وقد ثبت أن الخلافة في عصر الخليفة الناصر لدين الله لم تعتمد على الجيش بالكلية باستثناء فتح همذان وأصفهان (584هـ/1189م)[64]، ولذا كان دهاء وذكاء الخليفة الناصر يغطيان على ضعف الجيش العباسي، ولكن مع ذلك استطاع تحقيق انتصارات لا بأس بها، كما نجح الجيش العباسي أيضاً في سنة (589هـ/1193م) من ضمن خوزستان بالقوة العسكرية، ثم انفصلت لفترة وأعيد ضمها ثانية سنة (591هـ/1194م) [65].

وقياساً بهذا وللدلالة على ضعف الجيش العباسي في عهد الخليفة المستعصم؛ فقد بلغ الخبر دار الخلافة بنزول المغول إربل ومحاصرتها، فصدر أمر الخليفة للأمير شمس الدين باتكين بن عبدالله الرومي الناصري (ت640هـ/1242م)[66] بالتوجه إلى هناك ومعه ثلاثة آلاف فارس، كما صدر الأمر للدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك[67] بالتوجه إلى هناك في مماليكه، ثم خرج شرف الدين الشرابي ومعه أمراء ومماليك، واجتمع نائب الوزارة نصير الدين بالفقهاء والمدرسين وسائر العلماء لاستفتائهم في اجتماع الحج والجهاد أيهما أولى، وأمر المدرسين والعلماء ومشايخ الربط الصوفية بالاستعداد للجهاد، وبعد أن عاث المغول بالبلدة؛ وعلموا بقدوم جيش الخلافة؛ رحلوا راجعين إلى بلادهم في ثالث عشر محرم سنة ستمائة وخمس وثلاثين[68].

وفي أوائل حكم الخليفة المستعصم ظل الجيش العباسي على حاله من القوة النسبية، وحقق انتصاراً لا بأس به في سنة (643هـ/1245م) على المغول في مدينة بعقوبا[69] من أعمال بغداد[70]، ولكنه أخذ في الضعف شيئاً فشيئاً، ويرجع هذا الضعف إلى أسباب متعددة منها: أن الخليفة المستعصم كان بخيلاً جداً ومحباً لجمع المال، فلم ينفق على الجيش بالقدر الكافي، ولم يقدِّر المخاطر المحدقة بالخلافة، وقد وبّخه هولاكو[71] على عمله هذا بعد أن وقع أسيراً في يده، فقد ذُكِرَ أنه عرض على الخليفة المستعصم طعاماً عبارة عن قطع من الذهب، فلما استهجن الخليفة هذا الأمر قال له هولاكو: "إذا كانت الكنوز لا تسد الرمق ولا تحفظ الحياة، فلماذا لم تعطها

لجنودك ليحموك أو إلى جنودي ليسالموك"[72]، ورغم تشكيك الباحثة في صدق هذه الرواية، إلا أنها تشير إلى مدى ما لحق بالجيش الخلافي من وهن، عكس ما أظهر في فتح إربل أو بعقوبا.

يضاف إلى ذلك ما قام به ابن العلقمي – كما أوردت مصادر عديدة – من تسريح للجيش عندما علم بقدوم هولاكو بجيشه إلى بغداد، كنوع من الانتقام من تقليص دوره مقابل منح الخليفة كافة الصلاحيات للدويدار[73]، وما ورد أيضاً على لسان مصادر عديدة من إقناعه للخليفة بعدم المواجهة العسكرية مع المغول، وأن الأوْلى تقديم العطايا والهدايا للقائد المغولي من المال المتوفر من تسريح الجيش[74]، فيكفي القول إن جيش الخلافة كان قد بلغ في أواخر عهد الخليفة المستنصر مئة ألف فارس، صار دون العشرين ألفاً في أيام الخلافة الأخيرة.

- الاضطرابات الأمنية:

وهي من أهم العوامل المؤثرة على الحياة العلمية، وستتناولها الدراسة لاحقاً بالتفصيل، ولكن تجدر الإشارة إلى أن كثرة المنازعات بين الأحناف والحنابلة أدت إلى اضطرابات كثيرة، بالإضافة إلى المنازعات بين أهل السنة والشيعة، وبخاصة في محلة الكرخ الغربية، ولم تكن المنازعات المذهبية والطائفية هي وحدها السبب في اضطراب الأمن في بغداد، بل إن المنافسة بين الرؤساء في حاشية الخليفة كانت هي التي تذكي نار فتن عديدة.

(ب) العوامل الخارجية :

لعبت العوامل الخارجية دوراً فعالاً وحاسماً في التأثير على الحياة العلمية في بغداد في العصر الأخير، وبرزت قوى إقليمية، وتوارت قوى أخرى، وحدثت تحالفات وتناقضات وصراعات سياسية وعسكرية كان لها الأثر الكبير – جنباً إلى جنب مع العوامل الداخلية – على الحياة العلمية، وتلقي الدراسة الضوء على هذه القوى وترصد توجهاتها وأهدافها واستراتيجياتها، وذلك على النحو التالي :

1- **الخوارزميون**[75]:

صار حقد جلال الدين منكبرتي[76] على الخلافة مالكاً عليه قلبه ومشاعره، وظل معتقداً أن الخليفة الناصر لدين الله كان السبب فيما حلَّ بالمسلمين في المشرق الإسلامي من هلاك على يد المغول، وأنه أوعز إلى المغول بمهاجمة أبيه، وأغرى القراخطائيين[77] وشجعهم على مهاجمة أبيه أيضاً، وأقطعهم – أي الناصر – العديد من البلاد مكافأة لهم، وهذه الشائعة ليست جديدة أو مستغربة فملوك وسلاطين الخوارزميين أنفسهم هم الذين أرادوا نزع عمامة الخلافة المقدسة عن رأسها، فلابد من تبرير لخلع علاء الدين محمد للخليفة الناصر[78]، واتجه علاء الدين محمد إلى

المعظم عيسى الأيوبي[79]، وطلب إليه أن يعاونه في مهاجمة بغداد، لكن المعظم عيسى رفض ذلك بشدة، وكان جوابه: "إنني معك على كل أحد إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين"[80].

ثم كانت وفاة الخليفة الناصر نهاية لهذه العداوة، حيث عادت المراسلات مع الخلافة في عهد الخليفة الظاهر الذي بعث برسولين لجلال الدين ليأخذ البيعة له، ثم طلب جلال الدين أن يبقى أحد الرسولين عنده ممثلاً لدار الخلافة، وأن يعود الثاني مع رسوله لتسلُّم خلع الخلافة وهداياها، ثم حالت وفاة الخليفة الظاهر دون وصول هذه الخلع [81] وعادت العلاقات للجمود ثانية، وإن كان "النسوي" (ت639هـ/1241م) يعود فيشير إلى أن عملية الاتصال هذه تمت قبل وصول هذين الرسولين، حيث يذكر وصول رسول من الخلافة قبل ذلك[82].

ومهما يكن من أمر فلم تقطع الخلافة في هذه الأثناء صلتها بخصوم جلال الدين الذين كانوا دوماً يستجيرون بها، بدليل هروب غياث الدين[83] إلى خوزستان طارقاً أبواب الخلافة[84]، ويشار هنا إلى موقف ابن الأثير (630هـ/1232م) إزاء الخلافة، فقد ذكر في نفس الصفحة أن نائب الخلافة في خوزستان قد منع غياث الدين من الدخول، بينما النسوي – وهو الأصدق لمعاصرته الأحداث زمنياً ومكانياً – أشار إلى أن الخلافة استقبلت غياث الدين ورحبت به وأنعمت عليه[85].

اللافت في أمر جلال الدين ويستحق التسجيل؛ هو عدم امتلاكه لاستراتيجية واضحة يستهدف الوصول إليها، ويبدو من خلال أفعاله وردود أفعاله أنه كان في وضع نفسي سيء للغاية، فقد كان فكره متوزعاً بين الانتقام من المغول والتخلص من خطرهم؛ وفي نفس الوقت الحذر من أهله والمقربين إليه الذين ينافسونه في مملكته، كما أنه كان يريد أن يكون متميزاً ومنفرداً بين ملوك وسلاطين المسلمين وعلى رأسهم خليفة العباسيين، وأدى التوزُّع الانفعالي، والضرب العشوائي يمنة ويسرة إلى إضعاف قوته، وإرغام الجميع على الوقوف ضده.

وعلى الرغم من كل هذا؛ فقد سعت الخلافة في عهد الخليفة المستنصر – الذي ورث عن جده الخليفة الناصر بعض دهائه – إلى استيعاب جلال الدين من خلال التوفيق بينه وبين الأيوبيين، ومن ثم رفع الحصار الذي فرضه على مدينة خلاط[86]، فرفض هذا بينما قبل شروط الخلافة الأخرى، وطلب إلى الخلافة أيضاً أن يحظى بالتشريف على سائر الملوك فأجيب إلى طلبه رغم غرابته، وأصبح جلال الدين بموجب كل هذا أكثر طاعة للخلافة وأوامرها[87].

ولقد كان من الممكن – والحالة هذه – أن يكون الصلح بين الخلافة وجلال الدين عاملاً موجباً لتقوية الجبهة الإسلامية ضد المغول لو أن جلال الدين تخلّى عن

أنانيته ورغبته في الزعامة، لكن غروره وسوء تقدير عواقب الأمور دفعه إلى أن يحارب كل من حوله من الأمراء، فانهزم أمام الأشرف[88] وحلفائه، ففقد الكثير من أتباعه وجنوده[89].

وجدير بالذكر أن جلال الدين أحس في نهاية المطاف بضرورة الاستعانة بالخليفة والملك الأشرف وبغيرهما من حكام المسلمين، رغم أنه لم يترك لهم الفرصة قبل ذلك ليعاونوه، لكن المغول ظلوا يتعقبونه أينما حلَّ وكلما ارتحل[90]، مثلما فعلوا مع أبيه من قبل، ولم يستطع أن يثبت أمام المغول بعد أن تفرّق عنه معظم أنصاره، وراح يفكر في اللجوء إلى دار الخلافة مستجيراً بها بعدما يئس من الأيوبيين[91]، ولكنه لقي مصرعه وحيداً مختبئاً قرب ديار بكر[92]، إذ قتله بعض الأكراد انتقاماً لثأر قديم، وبموته انطوت صفحة الدولة الخوارزمية، التي أمدت بغداد طوال فترة حكم الخليفة الناصر ومن جاء من بعده من خلفاء بمئات العلماء وطلاب العلم المرتحلين أو المقيمين في بغداد، وكانوا أحد أهم عوامل ازدهار الحياة العلمية في بغداد في العقود الأخيرة من عمر الخلافة.

2- الشيعة الإسماعيلية[93]:

ازداد خطرهم في أرجاء الشرق الإسلامي؛ لتؤدي مهام سياسية وعسكرية ضد خلفاء وحكام وسلاطين وقادة الدولة العباسية من السنة، وكان حصاد تلك العمليات الدموية حرمان الجبهة الإسلامية من قيادات حكيمة وراشدة، كان يمكن أن تلعب دورها الإيجابي لتكوين جبهة موحدة لمواجهة الأخطار الخارجية[94]، وفي سنة (608هـ/1211م) تبدَّل حال الإسماعيلية عندما تولى زعامتهم جلال الدين حسن الثالث[95]، الذي هداه الله للحق فامتنع عن فعل المحرمات، ودعا كل أتباعه في العراق والشام وفارس بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وهو ما أوغر صدر الشيعة الإسماعيلية فتحالفوا على قتل زعيمهم في سنة (618هـ/1221م) [96]، فتولى ولده من بعده فعاد بهم إلى سياسة القتل والاعتداء والاغتيال مستغلين حالة الفوضى التي حلت بالخلافة العباسية، والعدوان المتلاحق من المغول على ديار الإسلام، بل وصل الأمر بالإسماعيلية إلى حد التحالف مع المغول لإضعاف جلال الدين منكبرتي، وترصُّد أخباره واغتيال بعض أمرائه، ناهيك عن أعمال القتل المنظم لقادة الجهاد الإسلامي السني في الشام ضد الصليبيين، وهو ما أدى إلى هجرة الكثير من العلماء في الشام إلى بغداد، وكانت نهاية الإسماعيلية على يد من كانوا أسيادهم يلقون إليهم بالمودة والمعونة خيانةً للمسلمين، فقد قرر المغول التخلص منهم قبيل توجههم في حملتهم لإسقاط دولة الخلافة، فحاصروا قلاعهم ودكوا حصونهم، وكانت نهايتهم على أيدي المغول سنة (654هـ/ 1256م)[97].

3- الاجتياح المغولي لبغداد:

بدأت حملات الغزو المغولي على بلاد الخلافة العباسية في حقب أربعة من الخلفاء العباسيين، وذلك منذ سنة (618هـ/1221م وحتى سنة 656هـ/1258م)، وكان أول هؤلاء الخلفاء الأربعة هو الخليفة الناصر لدين الله، حيث بدأ في عهده اندفاع جنكيزخان[98] صوب الدولة الخوارزمية.

ثم جاء الخليفة الظاهر لأمر الله سنة (622هـ/ 1225م)، والذي لم يكمل سنة من خلافته[99]، وقد أوفد رسله – كما سبقت الإشارة – لمصالحة جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين خوارزم[100].

وأعقب الخليفة الظاهر ولده المستنصر بالله، الذي أشتهر بأعماله العمرانية أكثر من شهرته السياسية العسكرية، ولابد أن نلقي عليه أكبر اللوم بين الخلفاء العباسيين الثلاثة المتأخرين في إهماله أمر الدفاع المجدي عن عاصمة الخلافة، وعدم تمسكه بسياسة مستقرة صحيحة لمواجهة المغول، فقد حكم مدة سبعة عشر عاماً، وكان يوصف بالحكمة والشجاعة والعدل والكفاءة، وقد ورث عن جده مالاً كثيراً، وكانت أحوال البلاد الاقتصادية في عهده حسنة، لكنه كان أميل إلى العلم منه إلى الحرب. وقد عُرف ببناء المدارس والمساجد والرباطات، وكان مسرفا مبذرا، وفي عهده هزم المغول جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين خوارزم، وأصبحت أذربيجان وهي ليست بعيدة عن العراق قاعدة لتجميع قواتهم في الهجوم على مناطق العراق العجمي والعربي خاصة أربل وأعمالها، وقد كان موت جلال الدين نذيرا بخطر جسيم على العراق وغيره من بلاد المسلمين، ومع هذا لم يتحرك له الخليفة المستنصر بالله بينما أدركه آخرون، فقد هنأ جماعة من الأعيان الملك الأشرف موسى صاحب الشام على كسرة عدوه جلال الدين فقال: " تهنئونني بهذا؟!، سوف ترون غب هذا، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتر بلاد المسلمين، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج"[101].

وقد أثبتت الحوادث التالية صحة قول الأشرف؛ فقد أخذت جنود المغول تهدد العراق وتتغلغل فيه بين حين وآخر طيلة خلافة المستنصر بالله بسنوات متتابعة. فكانت سياسته الحقيقية إزاء المغول – كما أشار إليها السيوطي – قائمة على المهادنة والمصانعة والاسترضاء[102]، وليس التهيؤ للقتال بتعبئة مصادر البلاد المادية والمعنوية من رجال ومال، بل الاعتماد على استنفار الرجال من الأعمال، والأعراب من البادية ساعة ظهور الخطر؛ ثم صرفهم بعد زواله، وقد بدأت عوامل الانحلال تنكشف في أواخر عهده، ولكنها نمت واتسعت خلال حكم ولده وخليفته الضعيف المستعصم بالله[103].

وقد شهد عهد الخليفة المستنصر حملة كبيرة للمغول جردها اوكتاي قاآن بن جنكيزخان على ما تبقى من الدولة الخوارزمية، وقد تمكنوا من هزيمة السلطان جلال الدين منكبرتي، وقتله في سنة (628هـ/ 1230م)، وكل "ذلك في جبل بنواحي آمد[104] يستوطنه كرد"[105]، كما شهدت خلافة المستنصر تهديد المغول لأطراف العراق ودولة الخلافة لثمان مرات ما بين السنوات (628-640هـ/ 1230-1242م)[106].

وجاء المستعصم بعد الخليفة المستنصر إلى الخلافة في أحلك ظرف وأصعب حقبة من حقب حكم البيت الهاشمي، فقد واجهه تكالب الأعداء وخصوصا الهجمة المغولية الشرسة، حيث تميزت مدة حكمه بكون السلطة الحقيقية كانت بيد رجال الديوان كالدويدار وعارض الجيش وليس بيده[107]، وعشية التهديد المغولي الشامل لأراضي الخلافة؛ ازدادت هذه الحالة سوءا وخطورة إثر تفاقم المشاكل داخل الجهاز الإداري المسؤول عن شؤونها، وخصوصاً النزاعات التي كانت تقع بين كبار موظفي الديوان بزعامة الوزير مؤيد الدين بن العلقمي من جانب؛ والدويدار الصغير من جانب آخر، فالدويدار الصغير الذي كان كاتباً للخليفة أصبح يترقى بصورة تدريجية في الديوان؛ حتى آل به المقام عند وفاة ابن بلده شرف الدين الشرابي في سنة (653هـ/ 1255م) إلى تولي قيادة الأتراك المماليك، الذين كانوا يشكلون غالبية الجيش العباسي[108]، وبهذا التقدم السريع أصبح الدويدار منافساً خطيراً للوزير ابن العلقمي، ومعارضاً شديداً لسياسته الإدارية.

وإضافةً إلى ذلك فقد كان نجل الخليفة سبباً في عدم رغبته في بذل المال لجنوده حتى تفرقوا عنه، وهجروا العراق إلى غيره من البلاد، رغم تهديد هولاكو واقترابه من حدود مملكته، وكان من أسباب ضعفه وسوء تدبيره عدم ممارسته الحكم قبل خلافته إلا أنه كان مسجونا خلال حكم أبيه على عادة الخلفاء العباسيين في سجن أولياء عهودهم خوفاً من استحواذهم على الحكم بمساعدة أمراء العسكر المتحكمين في شؤون الحكم[109]، وعند قدوم هولاكو على رأس حملته؛ وهو في طريقه نحو الأراضي العباسية اقترح الوزير ابن العلقمي وجوب استرضاء ذلك العدو الغازي، وذلك بإرسال هدايا وتحف ووحدة عسكرية صغيرة لتشارك في حربه المقررة ضد طائفة الإسماعيلية، فيما قام الدويدار الصغير باتهام خصمه بالتآمر مع المغول ضد الخليفة[110]، وقد كانت الأوامر التي أصدرها الإمبراطور منكوقاآن إلى أخيه وقائد جيشه هولاكو الزاحف إلى الغرب؛ تقضي بمعاملة من يخضع له بالحسنى، وبسحق من يقاومه ويعصيه ومنهم خليفة بغداد[111]، أما جيش الخلافة العباسية عشية الغزو المغولي؛ فلم يكن بحالة يحسد عليها عدداً واستعداداً، فقد كان جيشاً صغيراً لا يزيد

تعداده في التقدير الأولي لتشكيلاته عن ثلاثين ألفا في أحسن الأحوال، ويتكون معظمه من مماليك الخلفاء الذين تولوا الخلافة قبل المستعصم بالله[112]، خاصة الناصرية التي كانت رئاستهم مسندة مالياً إلى الدويدار الصغير وعسكرياً إلى ديوان العرض[113] [114]، وإلى جانب مماليك الخلفاء؛ فإن جيش الخلافة كان يضم مجموعتين أخريين هما العناصر الكردية بزعامة عز الدين بن كر الشيباني (ت 656هـ/1258م)[115]، والعناصر التركمانية برئاسة سليمان شاه بن برجم الأيواني (ت 656هـ/1258)[116]، وهذه المجموعات الثلاثة بقدراتها المتواضعة هي التي كان يعوَّل عليها في مهمة الدفاع عن بغداد .

ورُغم كل هذا؛ فقد صمدت بغداد أربعة عشر يوماً، تواجه هذا الخطر الداهم الذي استهدفَ تاريخها ومجدها وكرامتها، وصبر أهلها على الضرِّ والبلاء؛ وفي يوم الاثنين الثامن والعشرين من المحرّم اقتحم هولاكو بغداد، وبذل السيف في أهلها، وعاث المغول فيها، ورافق ذلك عمليات النهب والسلب[117]، والقتل والتنكيل الذي طال أهل بغداد، لا يُستَثنى منهم ألوف العلماء من بغداديين ووافدين.

ثالثاً: العوامل الاقتصادية:

من البديهي القول إن عصب المجتمعات قديماً وحديثاً هو الاقتصاد، وبقدر انتعاش الأنشطة الاقتصادية تنتعش كل مناحي الحياة الأخرى، ولا شك أن العوامل الاقتصادية كان لها دور فعال ومؤثر في الحياة العلمية في بغداد، وقد أثَّرت سلباً وإيجاباً على المستوى المعيشي للعلماء، وعلى حراكهم الاجتماعي، وعلى إنتاجهم العلمي في ذات الوقت، ومن الممكن القول إن العوامل الاقتصادية قد أثرت بشكل أو بآخر على علاقة العلماء بالدولة من جهة، وبأهل بغداد من جهة ثانية.

1- الزراعـة:

كان النظام السائد في المجال الزراعي هو اقطاع الانتفاع؛ أي أن الأرض الزراعية ملك لبيت المال، ويُعطى الإقطاع إلى شخص لمدة معينة، ثم يؤخذ منه متى أراد الخليفة ذلك، أو عند وفاة صاحب الإقطاع، وكان هذا النوع من الإقطاع نوع من التعويض المالي لبعض الموظفين المدنيين أو العسكريين عن الراتب النقدي، إضافة إلى نفوذ مماليك الجيش وكبار حاشية دار الخلافة دفعهم للسيطرة على إقطاعات ضخمة من الأرض الزراعية[118].

وكان هناك إقطاع التمليك، وبموجبه تكون الأرض ملكية تامة، ووراثية، وعلى صاحب الإقطاع دفع العشر إلى المخزن، بالإضافة إلى أراضي الملك، ويأتي الخليفة وعائلته في الدرجة الأولى في امتلاك هذه الأراضين وكان يُعيَّن وكلاء لإدارتها نيابة عنهم[119].

وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة عن النشاط الزراعي في تلك الفترة، فإن فترة القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجري/الثاني والثالث عشر الميلادي شهدت انتعاشاً ملحوظاً في النشاط الزراعي. إذ تضمنت رحلة بنيامين التطيلي سنة (555-565هـ/1160-1170م) ورحلة ابن جبير إلى بغداد التي بدأت سنة (580هـ/1184م) وحتى وفاته سنة 614هـ/1217م) إشارات إلى مستوى النهضة الزراعية التي أعقبت الحكم السلجوقي، فالمنطقة الواقعة جنوبي بغداد تخرج منها فروع دجلة المتعددة لتروي الأرض الخصبة والعمران الممتد، فالقرى عامرة، والقنوات تؤدي عملها، والمزارع متصلة[120].

ولا شك في أن ازدهار الزراعة وتوافر المحاصيل انعكس على الحياة العلمية، حيث يجد العلماء البغداديون والوافدون مستلزماتهم الأساسية للحياة، وهو ما يشكل عامل جذب لهم، كما أثّرت أيضاً على النشاطين الصناعي والتجاري.

2- الصناعة:

من أهم أسس قيام الصناعة ضرورة توفُّر المواد الأولية اللازمة لها، وأهم هذه المواد المنتجات الزراعية، وكانت صناعة الملابس في مقدمة الصناعات المشهورة في بغداد، والتي قامت على محصول القطن الذي كان يأتي من بلاد ما وراء النهر[121]، كما كان الحرير متوفراً بكثرة في إقليم "مازندران"[122]، حيث تشيع تربية دودة القز نظراً لكثرة زراعة أشجار التوت التي تتغذى عليها هذه الديدان[123]، إلى جانب اشتهار مدينة باب الأبواب[124] بإنتاج الكتان المهم في صناعة المنسوجات، التي لم تكن حكراً على مدينة بغداد فقط، لكنها كانت منتشرة في العديد من القرى والمدن العراقية، وبخاصة تلك الصناعات النسيجية القائمة على القطن والكتان والحرير والصوف، وكانت تسمى مصانع النسيج "طراز"[125].

ولقد اشتهرت دور الطراز الإسلامية في بغداد وفي غيرها من المدن العراقية والشامية والمصرية بجودة أقمشتها، وحدث نوع من التبادل التجاري بين هذه المدن، التي ذاع صيتها بذيوع الأقمشة والمنسوجات المصنوعة فيها، ودخلت بعض أسمائها اللغات الأوروبية، ولا تزال باقية فيها، فلا نجد في العصور الوسطى صناعة أقمشة جيدة إلا في دور الطراز الإسلامية، وكانت الدول خارج دار الإسلام تتهافت على شرائها[126]، فقد تطورت صناعتها في بغداد، ودخلتها الخيوط المتنوعة، فيقال: الخيط "المصري"، والخيط العراقي، والخيط العالي[127]، كما دخلتها الزخرفة بأشكال متعددة، وصبغت بمختلف أنواع الأصبغة[128].

وقد أخذت الأقمشة البغدادية أسماءها من المدن أو الأمصار التي جاءت منها خيوطها أو مادتها الخام، حيث نجد صناعة الحرير قد أُدخلت من الصين عن طريق

بلاد فارس، و"الديباج"[129]وهو نوع آخر من الحرير الموشح بالذهب، وكان المصنوع منه في بغداد له شهرة عالمية، كما كثر استعماله في مصر والأندلس، وهو ما يدل على اتساع التبادل التجاري آنذاك. وكذلك كان هناك "الوشي"[130]وهو قماش مصنوع من الحرير واشتهرت به بغداد؛ والخز أو القطف[131] وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر ذكر الأرنب. واشتهر في بغداد أيضاً "الموصلي" الذي اشتهر بالموسلين Mousseline وهو قماش من الحرير أو القطن أُشتق اسمه من مدينة الموصل؛ و"السندسي" وهو رقيق كالديباج؛ و"الطميم"[132]وهو قماش يشبه الديباج المذهب؛ والشرب[133]وهو نوع من القماش الشفاف وتدخله خيوط حريرية أو مذهبة، ويوجد منه نوع شفاف جداً، بحيث أن الشخص كان يستطيع أن يلبس عمامة طولها مئة ذراع (خمسين متراً) [134] هذا بالإضافة إلى "السقلاطون" البغدادي الذي ذاع صيته في أوروبا ولبسته النساء، ولبسه الفرسان، وعُرف في بعض اللغات الأوربية Sekerlat وEskerlat، وفي الأسبانية يطلق عليه Siglatot، وفي الإنجليزية Ciclaton، وفي الألمانية Ciclat[135].

وفيما يخص الحياة العلمية؛ فقد اشتهر بعض علماء فترة البحث بامتهانهم العمل في الصناعات المرتبطة بالملابس، والسقلاطون، وصباغة الملابس والأقمشة والتجارة فيها، ومنهم:

-يحيى بن إبراهيم بن محمد، ابن أبي المعالي البزَّاز الكرخي الفقيه، وهو ممن قرأ عليه ابن الدبيثي، (ت624هـ/1227م) [136].

-علي بن المبارك بن عبدالواحد بن محمد بن يوسف، أبو الحسن الصبَّاغ، وكان فقيهاً محدثاً (ت626هـ/ 1229م) [137].

-علي بن المبارك بن علي الشيباني، أبو الحسن المُطرِّز، من ساكني المأمونية، حافظ، كثير التلاوة، حسن الطريقة، (ت626هـ/ 1229م) [138].

-علي بن أبي الفوارس المقرئ الواسطي الخياط، وقدم بغداد واستوطنها، وكان حاذقاً في الخياطة[139].

-معتوق بن أبي الفضل محمد بن حسين الغزال، وهو حافظ محدث (ت626هـ/ 1229م)[140].

-عبدالواحد بن عبدالعزيز بن علوان، أبو محمد السقلاطوني، المحدث الفقيه، (ت631هـ/ 1234م) [141].

-علي بن الحسن بن أحمد بن رشيد البزَّاز، وهو محدِّث، وأخذ عنه ابن الدبيثي، ومعلوم أن ابن الدبيثي متوفى في سنة (637هـ/1239م)، وهو ما يعني أن هذا العالم ينتمي إلى فترة البحث[142].

ويبدو أن صناعة الحدادة وتشكيل المعادن كانت جديدة في بغداد، وتثير إعجاب الناس، ففي سنة (628هـ/1231م) وفي ليلة عيد الفطر فُتح باب في حائط دار الوزارة، وجُعل عليه شباك جلس فيه ابن القمي نائب الوزارة واستعرض العسكر، ويبدو أيضاً أن هذه الصناعة كانت تستهوي العلماء الوافدين فيستوردونها من بغداد إلى بلادهم، فقد اشترى الشاعر البحراني المشهور "علي بن المُقرِّب العيوني"[143] المتوفى سنة (631هـ/1233م) حديداً من بغداد وانحدر إلى البصرة ماراً بواسط، فأخذ منه ضامن المكوس مكساً فهجاه بقصيدة، ثم مر البصرة فأخذ منه ضامن المكوس مكساً، فهجاه بقصيدة[144].

وأما صناعة الصابون، فالثابت أنها كانت معروفة منذ بدايات الخلافة العباسية، ولكنها اشتهرت في العصر المتأخر، وكان يتم توزيع جراية من الصابون على طلاب المدارس في فترة الدراسة، وبخاصة طلاب المدرسة المستنصرية[145].

وأما صناعة الورق وثيقة الصلة بالحياة العلمية؛ فقد كانت مشهورة في بغداد منذ خلافة هارون الرشيد، وكان يسمى هذا الورق بالكاغد[146]، وزاد الطلب عليه في فترة حكم الخلفاء الثلاثة المتأخرين من العباسيين، نظراً للنهضة العلمية التي سادت العصر، وقد أكد ابن خلدون فيما بعد سنة (808هـ/1405م)، أن صناعة الوراقة قد زالت من بلاد المغرب على عصره، إلا أنها استمرت في بلاد المشرق نظراً لرواج العلوم فيها[147]

3 – التجـارة:

من البديهي أن تنشط التجارة في ظل ازدهار الزراعة والصناعة، وفي ظل حركة تنقل العلماء من وإلى بغداد، وكان كثير من هؤلاء العلماء من التجار، بالإضافة إلى كون بغداد بوابة عبور حجاج المشرق، وهو ما ساعد على رواج التجارة أيضاً، يضاف إلى ذلك احتواء المجتمع البغدادي جنسيات وأعراق متباينة، وكونها البوابة الشرقية للعالم الإسلامي.

وكان العلماء الوافدون يقصدون بغداد من بقاع الأرض كلها، جالبين معهم تجاراتهم ونفائس بلادهم، وكان من الطبيعي أن يسكنوا بغداد لفترات معينة، وممن سكن بغداد من هؤلاء العلماء التجار أبو الجيش الحموي[148]، وهذا التاجر هو سيد ياقوت الحموي العالم المعروف وصاحب معجم البلدان وأحد علماء فترة الدراسة، وكان قد اشترى ياقوت وأرسله إلى الكُتَّاب ليتعلم الخط ويساعده في عمله التجاري، ولما كبر شغَّله سيده بالتجارة، وأرسله إلى البلاد البعيدة، ثم أعتقه في سنة (596هـ/1199م) [149]. وأحياناً كثيرة كان بعض التجار الغرباء من العلماء، ولذا فقد تم دعوتهم إلى افتتاح المدرسة المستنصرية سنة (631هـ/1233م)، وقد نالتهم الخلع

التي وزعت على المدرسين والمعيدين ومن حضر من كبار الموظفين[150].

وعلى الرغم من الأحداث المتعاقبة على ديار المسلمين، وتهديد المغول المنتظر بعد سقوط دول المشرق؛ إلا أن طرق التجارة في العصر العباسي الأخير كانت آمنة، والدليل على ذلك أنه كان في بغداد عدد هائل من الأسواق المنتشرة على جانبيها الشرقي والغربي، والتي كانت على درجة عالية من التنظيم، فكان لكل أهل حرفة أو صناعة سوق خاص بهم، لا يختلطون بغيره[151]، وقد لعبت هذه الأسواق دوراً مهماً في الحياة الثقافية والعلمية، فعلى سبيل المثال نجد سوق الوراقين الذي يضم بين جدرانه ما يزيد عن مئة حانوت[152]، كانت تباع فيها كل أنواع الكتب والوراقة، ولم يكن عمل هذه السوق مقتصراً على بيع الكتب، وإنما كانت لها أبعاد في الحياة العلمية والثقافية، وتحوَّلت إلى مسرح للثقافة، يلتقي فيه العلماء والأدباء، وتنعقد فيه حلقات الدرس، ولم يكن بائع الكتب مجرد تاجر يسعى وراء الربح فحسب، بل كان أغلب أصحاب هذه الحوانيت من الأدباء والعلماء، وأصحاب الثقافات المختلفة، وكانوا يبغون أولاً المتعة العقلية والروحية من وراء هذه الحرفة التي جذبت إلى حوانيتهم العلماء[153] من البغداديين والوافدين، وجمعتهم بالأدباء والشعراء من كل حدب وصوب، حيث حفلت قوائم الوراقين بأسماء لامعة كياقوت الحموي صاحب معجم البلدان[154].

وبالإضافة إلى ما سبق فقد أدى رواج الأنشطة التجارية في بغداد في العصر العباسي الأخير إلى إقبال كثير من العلماء والأدباء بغداديين أو وافدين على العمل في التجارة، بل وشاركوا في ممارسة بعض المهن والحرف والأعمال اليدوية، على الرغم من مكانتهم العلمية، حيث امتهن بعضهم التجارة والسفر من أجلها، فيحصِّل العلم والمال في آنٍ واحد، فبعضهم عمل بتجارة البز[155]، وبعضهم عمل بالخرازة والخياطة والدلالة وغيرها من المهن، وقد صحب عدد كبير منهم القوافل التجارية إلى بلاد ما وراء النهر وإلى الشام وخراسان ومصر والهند[156] وغيرها، ومن أمثال هؤلاء العلماء المشتغلين بالتجارة:

- الحسين بن محمد أبو المعالي البزاز[157]، أحد العدول الشهود ومُحدِّث، وتوفي بعد (622هـ/1225م)، وقد ارتبط ببعض التجار، وكان أغلبهم من العلماء بخدمة أسرة الخليفة، وكان من هؤلاء التجار:
- على إبراهيم البزاز (ت627هـ/1229م)، وقد تولى وكالة الباب الشريف، ثم تولى بعد ذلك الكثير من أعمال دار الخلافة[158].
- يوسف الإربلي البحراني الشاعر، الملقب بالعيوني(ت631هـ/1233م)، وكان يتردد من إربل إلى البحرين ليُحصِّل اللآلئ أسوة بأمثاله من التجار[159]، وهو ما

يدل على كثرة أسفاره بين بغداد والبحرين للتجارة في اللؤلؤ، وهو الذي سبقت الإشارة إليه عندما اشترى الحديد المُشكَّل، وسافر به عبر البصرة وواسط.

- مكرم بن محمد بن حمزة، القرشي، التاجر، الدمشقي، قدم بغداد غير مرة للتجارة، وحدَّث بها، كما حدَّث بمصر والشام وبغداد وحلب، وهذا يدل على كثرة أسفاره للتجارة وطلب العلم والرواية، وتوفي (635هـ/1273م) [160].
- عبدالعزيز بن محمد بن محمد البزَّاز، أبو القاسم بن أبي عبدالله، وقرأ عليه ابن الدبيثي[161]، وهذا يعني أنه عاش حتى سنة (637هـ/1239م).
- عبدالقاهر بن الفضل بن سهل بن بشر الدمشقي، يعرف والده بالأثير الحلبي وسمع عنه ابن الدبيثي، وكان كثير التردد بين دمشق وحلب وبغداد هو وأبيه[162].

رابعاً: العوامل الاجتماعية:

كان المجتمع البغدادي منذ قيام الدولة العباسية خليطاً متنوعاً من الأعراق والقوميات والطوائف، وإن انقسم بوجه عام إلى ثلاث طبقات اجتماعية متمايزة: العليا (الأرستقراطية)، والطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا.

وكانت الطبقة الأرستقراطية تمثل قمّة الهرم الاجتماعي، يحتل الخليفة رأسه، فهو الشخص الأول في المجتمع البغدادي باعتباره خليفة المسلمين، وصاحب السلطتين الدينية والزمنية، يباشرهما من خلال مجموعة من المعاونين وكبار رجال الدولة، وككل الخلفاء كان يملك مداخيلَ وثرواتٍ كبيرةً، لما كان تحت يده من الأملاك والإقطاعيات، ويدير أمواله وكلاء خاصوُّن[163] معظمهم من العلماء. أما أفراد عائلة الخليفة فلم يكن لهم نشاط سياسي أو اقتصادي يذكر[164] والواضح أنهم كانوا يتنعمون بما ينعم به الخليفة عليهم من الهبات[165]، هذا إلى جانب الأسر والعائلات المنتمية إلى العباسيين والطالبيين. وقد تمتَّع كبار رجال الدولة بالثروة الطائلة والواسعة، فكانت رواتبهم من أعلى الرواتب وخير دليل على ذلك التركات التي تركوها والأوقاف التي وقفوها.

ويمثل قاضي القضاة ركناً مهماً من أركان إدارة الخلافة العباسية، وهذه الرتبة هي أعلى ما يمكن أن يصل إليه قاضٍ، إذ يبدأ عمله قاضياً في مناطق العراق، أو في محلة من المحلات؛ إلى أن يتم ترتيبه في هذا المنصب[166]، وعلى هذا ترى الدراسة أنه يمكن تصعيده من الطبقة المتوسطة التي ينتمي إليها اجتماعياً إلى الطبقة العُليا؛ بعد ما حاز على رضا وقبول الخليفة، وصار لصيقاً بدار الخلافة.

وشكّل كبار التجار جزءاً من هذه الطبقة المشار إليها، فقد كانت تمتلك الثروات الهائلة ، وزاد من قوّتها ظهور فئة من أصحاب المصارف الذين هم تجار في الأصل، أخذوا يتاجرون بالنقود، وكان هذا نتيجة التحوّلات الاقتصادية التي شهدها العصر

العباسي كله[167]، وهم الفئة من التجار الذين كانوا يتعاملون مع هذه الطبقة بحكم المصالح، وما كانوا يكسبونه من تجارتهم مع هذه الطبقة من أرباح طائلة انعكست على حياتهم المعيشية فعاشوا عيشة هذه الطبقة المترفة.

- **الطبقة الوسطى:** رغم أن الباحثين درجوا على تصنيف العلماء والفقهاء والشعراء وموظفي وكتاب الدواوين والتجار وضباط الجيش والشحنة والمحتسبين والمعلمين والمؤدبين في الطبقة العليا (الأرستقراطية)، أو ما يسمّونها "طبقة الخاصة "، إلا إن مثل هذا تصنيف يجانبه الصواب إلى حد كبير، لأن معظم الفئات المشار إليها تنتمي في النشأة الاجتماعية إلى الطبقة الدنيا في المجتمع في الغالب الأعم[168]، وعندما تنال حظها من التعليم وتمارس نشاطها تتكون ملامح الطبقة المتوسطة التي من أهم سماتها احتفاظها بقيم وتقاليد ثابتة وراسخة تؤثر في المجتمع تأثيراً فعالاً نتيجة ما تملكه من ثقافة وإدراك وتوجيه للرأي العام في المجتمع، ولكن من عيوب هذه الطبقة الاجتماعية أنها تتعامل مع الطبقة الدنيا التي خرجت منها بشيء من التعالي وتكتفي إزاءها بدور الموجّه والمعلم، وكثير من أفرادها يتطلع إلى الطبقة العليا الأرستقراطية بنوع من التملق والإعجاب ويتمنى أن يُنْسب لها[169]، ومن خلال التعامل مع علماء فترة البحث اتضح أن بعضهم كان يرفض المنصب أو السلطان ويكتفي بدور العالم.

وعلى الرغم من هذا كلّه فإنّ الطبقة الحاكمة تظلُّ هي الطبقة المترفة التي تستأثرُ بالعزِّ والسلطان والنعيم، تنفقُ ببذخٍ وإسراف، ومن ذالك ما ذكره المؤرخون عن بذخ الخليفة المستعصم بالله – آخر خلفاء بني العباس – عندما ختن أولاده سنة (644هـ/1246م)، فقد أنفق من الأموال في هذه المناسبة، مئة ألف دينار، وألف وخمسمئة رأس شواء[170].

- **طبقة العامة**: وهي الطبقة المحكومة التي عانت دوما شظف العيش، ترهقُها الضرائب والرسوم، وتعيش عيشة الكفاف ؛ وإذا اشتدّت بها الحال انتهت إلى المجاعة أو الوباء ؛ إذْ تظلُّ الثروة و "الغلال معظمها لأهل الدولة أولي الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغبتهم، وعظمت في احتجاز أسباب الرفه نهمتهم"[171].

وقد ألقت الحياة السياسية المتدهورة آنذاك بظلالها الثقيلة على المجتمع العربي الإسلامي وفئاته حتى أصيبت الأوضاع الاجتماعية بالتدهور، ولحق بها ما لحق الحياة السياسية من فساد واضطراب وتناحر، ذلك أن الجانب الاجتماعي من حياة الناس شديد الصلة والتأثر بما يدور في المجتمع من أحداث سياسية تنعكس عليه.

وكانت الفجوة الاقتصادية بين طبقات المجتمع واسعة؛ مما أدى الى تصدع الكيان الاجتماعي، فاختل نظام توزيع الثروات الاقتصادية، وانتشرت في البلدان

الأمراض الاجتماعية، فشاع التحايل، والغش والشعوذة[172]، والقتل والسرقة والفساد[173] والفوضى الإدارية فضلاً عما شهدته بغداد من كوارث طبيعية[174] وصحية[175]، وكذلك تميزت الحياة الاجتماعية بتعاظم المشاعر الدينية، وكثرة الفتن، كما نما التيار الصوفي[176] في المجتمع، وكثرت أعداد الفقهاء والمحدثين والزهاد والوعاظ، وما ارتبط بذلك من بناء المدارس المذهبية، الرُبُط الصوفية والزوايا، إضافة إلى المساجد، وهو ما انعكس إيجاباً على الحياة العلمية.

- **الجواري والقهرمانات**:

أدت الجواري والقهرمانات في العصر العباسي دوراً مهماً في حياة الخلفاء، وفي الحياة الاجتماعية للمجتمع العباسي ككل. وكان لوجود الجواري والقهرمانات في بيوت الخلفاء والأمراء والإداريين؛ آثار مهمة على الحياة الاجتماعية وعلى الحياة العلمية، فمنهن من أصبحن زوجات الخلفاء، وأمهات لأولادهم، والقسم الآخر أمهات للخلفاء، حيث أن أغلب الخلفاء العباسيين بني إماء (أم ولد)[177]، وبعضهن تم تعليمهن وتخريجهن في الفنون والآداب، وتهذيبهن بآداب المجتمع، وأخريات اصبحن محظيات وسراري يُتْقِنَّ فنون الغناء والعزف والرقص، وبعض منهن أبدعن في الشعر والغناء، فيما أُستُخدمت البقية الباقية كخدم في هذه الدور بشتى أنواع الخدمة[178]. وقد برعت الكثيرات منهن في إدارة شئون قصر الخلافة، ولاسيما أن بعضاً من فئة الجواري لُقِّبْنَّ بالقهرمانات[179]، ومنهن من برعت في الشعر والأدب والقصة والمساجلة الشعرية[180]، وكثيرات من الجواري كن موزعات في دُور مختلفة من فئات المجتمع على اختلاف درجاتها الاقتصادية، أو العلمية، أوالثقافية، أو الفنية[181].

من أجل هذا ستركز الدراسة على الجواري والقهرمانات اللائي دخلن في البلاط العباسي، وأصبح لهن أدوار مهمة في تاريخ الدولة العباسية[182] في تلك الفترة الحاسمة من عمرها، فقد كان للقهرمانة الحق في الدخول والخروج من دار الخلافة، والاتصال بالناس بموجب طبيعة وظيفتها، وفيما عداهن لا يمتلكن هذا الحق حيث فُرض عليهن الحجاب والمنع من الخروج إلا في حالات استثنائية نادرة[183]. ونتيجة لذلك أصبح للجواري في العصر العباسي شأن عظيم ومنزلة عليا لم تشغلها الحرائر في العصر العباسي، لاسيما ما يخص تدخلهن في الأمور السياسية والإدارية، فضلاً عن وظيفتها المالية[184].

وحقيقة الأمر أن الباحثة لا تتحرَّج من اعتبار هؤلاء النسوة من عالمات فترة الدراسة، فلا يغيب عن الذهن أن الجواري والقهرمانات- وهنَّ غير عربيات- لم يبلغن هذه المكانة وتلك المنزلة في دور الخلفاء العباسيين؛ إلا بعد الجد والجهد والتربية

والتعليم والتلقين والصقل والتهذيب لكي يتفقهن في العربية[185]، ولكي يحفظن نوادر الأحاديث، وفرائد اللغة، وأمالي المجالس، وشارد الأشعار، بصرف النظر عن حرصهن وبراعتهن في إظهار مفاتنهن، والفخر بما لديهن من مظاهر الأنوثة، لأن معظمهن كُنَّ يضعن نُصب أعينهن الوصول إلى قصر الخلافة، وليس هذا فحسب؛ بل الرغبة في أن تكون الجارية الأولى لدى الخليفة بهدف توفير بهجة الروح ومنية النفس له، كما ان طبيعة الجواري أن يقبل عليهن الشباب والشيوخ[186] حتى أُلّفت عنهن كتب كثيرة من ضمنها "رسائل القِيَان" للجاحظ، وكتاب" القَيِّنَات" لأسحق بن ابراهيم الموصلي، وكتاب" القيِّنات" للمدائني، وكتاب "القيِّنات" ليونس بن سليمان المغني[187]، علماً بأن هذه المصنفات الرائدة لم تصل إلينا باستثناء مصنف الجاحظ.

ومما هو مثير للدهشة؛ أن يصبح لبعضٍ من هؤلاء الجواري والقهرمانات جوارٍ يقمن بخدمتهن وتلبية طلباتهن، وتشير المصادر إلى أن الناس كانت تهاب وتحترم قهرمانات الخليفة، بما في ذلك أن بعضاً منهن أصبح لهن طبيبٌ خاص لمداوتهن وعلاجهن. وما يعني الدراسة من أمر الجواري والقهرمانات هو البحث عن تأثيرهن في الحياة العلمية في بغداد، مع التركيز على دورهن المفترض فيها.

وقد ضم قصر الخليفة الظاهر عدداً من الجواري اللائي يرجعن في أنسابهن الى أصول تركية، مثل الجارية حياة خاتون والجارية جوهر. فقد بلغت الأولى البلاط العباسي بعد ان اشتراها الخليفة الظاهر من سوق الجواري في سامراء بمبلغ سبعة عشر الف دينار[188] وكانت حياة حظية لدى الخليفة الظاهر ومقربة اليه، وفي سنة (623هـ/226م) أعتقت حياة بعد موت الخليفة الظاهر، وعلى الرغم من عدم إسعاف المصادر لنا بمعلومات وفيرة عن صنعة هذه الجارية ونشاطها العلمي داخل القصر؛ إلا أن لها نشاطها الخيري المتعدد، فقد أوقفت أوقافاً على بعض المساجد، إلى جانب إنفاقها على بعض الربط الصوفية، وساكنيها من الفقهاء وطلاب العلم[189]، وتكريما لها ولدورها فقد بقيت داخل القصر العباسي إلى وفاتها سنة (639هـ/ 1241م) وحُملت إلى تربة الخليفة المستضيء والد الخليفة الناصر لدين الله[190].

أما الجارية جوهر؛ فقد وصلت قصر الخليفة الظاهر بالإهداء من أحد كبار تجار الأقمشة في بغداد[191]، وبعدها سميت "باب جوهر" نظراً لمكانتها لدى الخليفة، وهو لقب لا يُطلق على الجارية أو القهرمانة إلا إذا كان لها دور علمي متعلق بأحد أوجه أنشطة دار الخلافة، ما يعني أن لها دور في الحياة العلمية [192]، ورغم هذا الدور المنوط بها؛ فقد كانت حظية ومقربة للظاهر، وتوفيت سنة (667 هـ/1239م)، ودفنت بالترب الشريفة في الرصافة[193]. كذلك؛ كانت هناك الجارية نسمة، وهي من الأصول التركية، وأم ولده المنصور، الذي سيصبح الخليفة المستنصر[194]،

والمعلومات عنها قليلة رُغْم أنها "أم ولد".

ورغم من أن فترة خلافة المستنصر قد شهدت تقريب العلماء وبناء المساجد والمدارس كالمستنصرية الشهيرة التي ازدانت باسم منشئها؛ وكذلك الرُبُط والمارستانات[195]؛ إلا أنها شهدت أيضاً كثرة الجواري والخدم في قصور الخلافة، ورواج وانتعاش سوقهن في بغداد[196]، وكان جده الخليفة الناصر يقربه ويسميه "القاضي" لرجاحة عقله، وهداه، وإنكاره ما يجد من المنكر[197]. وقد امتلأ قصره بأعداد الجواري والخدم، ومنهن شاهان القهرمانة، الفارسية الأصل، وكانت في باديء الأمر جارية لزوجة الأمير جمال الدين بكلك السلجوقي[198] وشملتها بعنايتها الخاصة، فظهرت عليها أثار الترف والسعادة ، ولما بويع الخليفة المستنصر أهدتها له مع جملة جواري، وكانت قد نشأت تنشئة راقية ومتطورة في بيوت الأمراء والخلفاء واستغلت مكانتها لدى الخليفة المستنصر[199]، فأقامت من حجرتها باباً خاصاً نحو خارج القصر العباسي، كما عملت ديواناً لتسجيل الأمور المالية لدى الخليفة من الصرف والمشتريات[200].

اللافت أنه قد أصبح لهذه القهرمانة وكلاء ونواب وخدم وحاشية، فضلاً عن أنها تتصرف في الأموال حسب أهوائها، وتأمر وتنهى بأتم أمر وأنفذ حكم، بل وراحت إلى أبعد من ذلك؛ فعملت حسبة شهرية في ديوانها[201]، وأُطلق فيه الى الصاغة والبزازين والجواهريين وأرباب الصنائع على اختلاف صنائعهم، وجمعت ما يبلغ حوالي مئة ألف دينار[202]، وقيل خمسة آلاف وثلاثمئة وستون ديناراً[203]، وذُكر بأنها كانت كثيرة البر والمعروف، وتتفقد الفقراء والأرامل والأيتام ودائمة الصدقات[204]، فبعد وفاة الخليفة المستنصر وفَّروا لها نصيبها من التبجيل والإعظام، وتم نقلها هي وجواريها وخدمها ولأتباعها وحشمها الى الدار التي نشأت فيها عند سيدتها الأولى زوجة الأمير جمال بكلك، توفيت شاهان سنة (645هـ/247م) ودفنت في الرصافة[205].

ومن جوارى الخليفة المستنصر أيضا؛ السيدة هاجر، الرومية الأصل[206]، والتي وصلت بالشراء الى قصر الخليفة مقابل مبلغ تسعة آلاف دينار[207]، وأعتقها الخليفة المستنصر بعد أن ولدت له ولدين هما الأمير أبو القاسم عبد العزيز، والأمير أبو أحمد عبد الله، وكانت زوجة الخليفة المستنصر وأم الخليفة المستعصم فيما بعد، ويقال إنها صاحبة أعمال جليلة، وراغبة في فعل الخيرات ومواصلة الفقراء[208]، وخير دليل أنها أمرت ببناء رباط للصوفية في الجانب الغربي من بغداد، وقامت ببناء تربة لنفسها بجانب الرباط، وتوفيت السيدة هاجر سنة (646هـ/1248م) بعد أن عاشت حياة مترفة في عهد ابنها الخليفة المستعصم بالله[209].

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية لم تسعف بأكثر من القهرمانة شاهان والسيدة هاجر والدة الخليفة، وهي أم ولد (كما سبقت الإشارة)، وحتماً هناك جوارٍ أكثر من هذا خصصن للخدمة داخل القصر العباسي لم تورد المصادر شيئاً عن نشاطهن أيضاً.

أما الخليفة المستعصم؛ فقد كان سوق الجواري في زمانه سوقاً رائجة، لأن الخليفة – كما أُشيع عنه – كان من محبي سماع الأغاني، ويقضي معظم أوقاته لسماعها، على الرغم من خطر المغول المحدق بدار الخلافة الذي يلوح في الأفق[210]. وعندما دهم هولاكو دار الخلافة حصر الغنائم والجواري اللائي كان يملكهن الخليفة المستعصم، وأخذهن معه الى مركز حكمه في تبريز، لكنه سمح للخليفة المستعصم قبل أن يقرر نهايته أن يختار ما يريده من جواريه فيأخذهن معه الى مركز اعتقاله في المعسكر[211]، ويقال أنه انتقى من جواريه ما يربو على عشرين جارية، ويذكر ابن العبري (ت 685هـ/1286م) أن في قصر الخليفة المستعصم كانت الجواري سبعمئة امرأة، ومعهن ثلثمئة خادم عندما أخرجهن هولاكو من دار الخلافة[212].

خامساً : العوامل الدينية:

شكّلت العوامل الدينية محوراً مهماً أثّر على الحياة العلمية في العصر العباسي الأخير، فكلما اشتد الخلاف الديني والمذهبي؛ أثّر هذا على الحياة العلمية، حيث تؤلّف المصنفات والرسائل، وتنعقد المجالس والمحاضرات، وينشط الدعاة كلٌ يدافع عن مذهبه، وقد أثّر التعصب المذهبي في الحياة العلمية تأثيراً كبيراً طيلة العصر العباسي كله، والعصر الأخير على وجه التحديد، فتجلى ذلك في مختلف مظاهر النشاطات العلمية على مستوى المؤسسات، والإنتاج العلمي، والرحلات العلمية، والقضايا المذهبية على مستوى أصول الدين وفروعه، وغلب على هذه المصنفات التفاضل بالأئمة والمذاهب، والغلو في العقائد والمذاهب، ومسائل خلافية أثارت التعصب، ومؤلفات في الانتصار للمذاهب، والتعصب، وحرق كتب المخالفين تعصبا للمذهب، والتعمد في رواية الأكاذيب، وتحريف الأخبار، ودور المدارس والمساجد الطائفية في إذكاء الفتنة، والتعصب المذهبي عند أهل العلم، ومحن أصابت العلماء بسبب التعصب المذهبي. وللتمثيل فقط على هذا؛ تورد الدراسة ما يلي:

1- السُنَّة والسُنَّة :

وأخذت الصراعات المذهبية بينهم أشكالاً مختلفة منها:

(أ) التفاضل بالأئمة والمذاهب :

فالحنفية كثيرا ما بالغوا في تعظيم إمامهم ومدحه، من ذلك إنهم كثيراً ما

يلتزمون بوصف إمامهم أبي حنيفة بأوصاف مثل: (الإمام الأعظم، والهمام الأقدم، وتاج الأئمة وسراج الأمة أبو حنيفة النعمان)، وقد كررها كثيراً واحد من مصادر هذه الدراسة عبد القادر القرشي (ت775هـ/1373م) صاحب "الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية" [213]. يضاف إلى ذلك أن بعض الحنفية اختلقوا أحاديثَ نسبوها إلى رسول الله ﷺ فيها مدح لإمامهم وتبشير به وذم لغيره[214].

ومنهم أحد مؤرخي فترة الدراسة الفقيه تاج الدين السُبكي (ت771هـ/1369م)، الذي وصف الشافعي بأنه "الإمام الأعظم المُطَّلِبي، والعالم الأقوم ابن عم النبي". ومنهم الفقيه محيي الدين بن شرف النووي (ت 676هـ/ 1277م)، قال: "إن الشافعي كان بارعاً في العلوم، ولم يُوجد بعده من بلغ محله في ذلك، لذا فمذهبه أولى بالإتباع والتقليد"[215].

والحنابلة هم أيضا فيهم من بالغ في مدح أحمد بن حنبل وفضَّله على سائر الأئمة، فالفقيه المؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي(ت 597هـ/1201م) ذكر أنه سبر سيرة السلف كلهم ليستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار مجتهدا؛ والعمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم يجد أكثر من ثلاثة؛ وهم: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، ثم قال إنه لا ينكر على من ربّع بهؤلاء بسعيد بن المسيب[216]. فهو قد استبعد كلية أبا حنيفة ومالك والشافعي الذين بالغ أتباعهم في تعظيمهم ومدحهم، وجعل الإمام أحمد بن حنبل من بين الذين فضّلهم، واستبعد هؤلاء الأئمة الثلاثة المتبوعين، لعدم بلوغهم ما أشترطه في مقياسه.

وقد ترتَّب على مبالغات هؤلاء أنها عمّت خاصة الناس وعامتهم، وانتشر بينهم تقليد الأئمة والتعصب لهم بحق وبغير حق، وتجاوزوا الحد في تعظيم أئمتهم وامتثال أرائهم، إلى حد تجاوز الاحتكام إلى كلام الله تعالى وسنة رسوله – عليه الصلاة و السلام[217].

وقد ذكر أبو شامة المقدسي أحد مؤرخي الفترة (ت665هـ/1267م) أن المقلدين المتعصبين انتهى بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا أُورد عليه دليل من القرآن والسنة اجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نصرة لمذهبه. ثم انتهى بهم الأمر إلى إهمال علوم الكتاب والسنة، وتفضيل ما هم عليه الذي ينبغي المواظبة عليه، فبدلوا بالطيب خبيثا، وبالحق باطلا، وبالهدى ضلالا[218].

ومن علماء فترة الدراسة من الشافعية؛ أبو عمر بن الصلاح (ت643هـ/1245م) أوجب التقليد على الناس، وضيَّق على الفقيه مجال حريته، فإذا صح الحديث فليس له أن يعمل به حتى ينظر هل له معارض أو ناسخ أو نحوهما أم لا، وإذا حز في نفسه مخالفة الحديث، فالمختار عنده إن لم يكن أهلا للاجتهاد في

المذهب لم يجز له العمل به، لاحتمال أن يكون خفي عليه شيء[219]. ونص الفقيه محيي الدين بن شرف النووي (ت 676هـ/ 1277م) على أن التقليد أصبح لازما بعد تدوين المذاهب، ولا يحق للمقلد أن يخالف صاحب مذهبه، ولا يفتي إلا المجتهد[220].

(ب) مصنفات في الانتصار للمذاهب والتعصب لها :

كثُرت المصنفات المذهبية بين الطوائف السنية الأربعة خلال العصر العباسي الأخير، والتي كان هدفها الأساس الانتصار للذهب والرد على مخالفيه، وكثيراً ما غلب عليها التعصب المذهبي المتمثل في الحط من قدر المخالفين وعدم التأدب معهم، والمبالغة في مدح المذهب – المُنتصَر له – وتعظيم شيوخه.

فمن نماذج انتصار أصحاب المذهب الحنفي لمذهبهم ما صنَّفه بعضهم، كالفقيه الحنفي عيسى بن أبي بكر الأيوبي (ت642هـ/1244م) رداً على الخطيب البغدادي الشافعي (ت 463هـ/1070م) لأنه تعصّب على الحنفية على حسب رأيه[221].

ومن نماذج انتصار أصحاب المذهب الحنبلي لمذهبهم الأكثر انتشاراً في العراق؛ ما صنَّفه ابن قدامة المقدسي (ت620هـ/1223م)[222]؛ الذي يعد من أشهر علماء الحنابلة في بغداد، وكتابه المعروف بعنوان: "المغني، شرح مختصر الخرقي"، وهو كتاب في الفقه على مذهب أحمد والخلاف بين العلماء من المذاهب المختلفة، وكتاب "اعتقاد الشافعي"[223].

كما قام ابن الأخضر (ت623/ 1226م)[224] بتأليف عدد من المصنفات مثل: "تنبيه اللبيب وتلقيح فهم المريب في تحقيق أوهام الخطيب"، وكتاب: "تلخيص وصف الأسماء في اختصار الوصف والترتيب (20ج)، وكتاب: "من حدَّث عن الإمام أحمد"[225].

وأما يحيى بن يحيى الأزجي (ت623هـ/1226م)[226]، فقد صنَّف كتاباً بعنوان: "نهاية المطلب في علم المذهب"، وخلط بين فقه أحمد والشافعي، لأنه حذا حذو بعض مؤلفات الشافعية[227].

وأما مصنفات المذهب الشافعي في الانتصار للمذهب والخلاف مع غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى؛ فنجد كتاب: "مناقب الشافعي"لابن النجار (ت643هـ/1245م)[228]، وكتاب: "الأشباه والنظائر في فقه الشافعية"لصدر الدين ابن الوكيل (716هـ/1316م)[229]، وهو أول كتاب في الفقه بهذا الاسم، قال الذهبي (ت748هـ/1348م): "قال عنه ابن تغري بردي: إنه لم يسبقه إليه أحد"[230].

وذكر أبو شامة، وهو من معاصري فترة الدراسة أن الشافعية في فترة البحث كانوا يتعصبون لمصنفات أبي حامد الغزالي، وأبي إسحاق الشيرازي، حتى ولو خالفت الحديث الصحيح الصريح، وكان أكثر متعصبة الشافعية يردون أقوال أكابر

الصحابة، كأبي بكر وعمر – رضي الله عنهما-، ولا يردون قول الشيرازي والغزالي، وذلك لقلة معرفتهم وكثرة جهلهم بمراتب السلف[231].

وأما تاج الدين السبكي الأشعري، وهو أيضاً من علماء فترة الدراسة؛ فقد أورد في كتابه طبقات الشافعية أن "الحنابلة هم الذين خرجوا عن عقيدة الأشعري، والتحقوا بأهل التجسيم"[232]، وترى الباحثة أن قوله هذا فيه تعصب مفضوح وافتراء مكشوف، لأنه بما أن معظم علماء الحنابلة ما كانوا أشاعرة، وإنما كانوا على مذهب السلف وأهل الحديث في أصول الدين؛ فهذا يعني حسب زعمه – أي السُبكي – أن غالبية علماء الحنابلة كانوا مجسمة، وهو اتهام خطير وبهتان مُتعمد مكشوف.

وفي هذا السياق تشير الباحثة إلى أن كتب الطبقات لعبت دوراً كبيراً في التعصب وشيوع روح المذهبية، ويتمثل ذلك في مصنفات " ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب، و"طبقات الشافعية" للسبكي، و"الجواهر المضية في طبقات الحنفية" للقرشي، وهو ما أجحف كثيراً بالعلماء، وقصَرَ كل مصنَّف من هذه المصنفات العلوم على أصحاب المذهب دون غيرهم من علماء المذاهب الأخرى.

وهناك واقعة تتعلق بما حدث لمصنفات أهل السنة على اختلاف مذاهبهم على يد المغول وأعوانهم لما استولوا على بغداد، وذلك أنهم لما دمروا البلاد وقتلوا العباد قام وزيرهم نصير الدين الطوسي بالاستيلاء على كتب أهل السنة، فأخذ منها المؤلفات التي تهمه – منها كتب الفلسفة وعلم الكلام – وأحرق كتب السُنَّة في العلوم الشرعية[233].

2- السنة والشيعة:

ومما له علاقة بموضوع الدراسة؛ هو أن بعض سياسيي الشيعة وأعيانهم أوصلهم تعصبهم المذهبي إلى خيانة السنة والتآمر عليهم والتعاون مع أعدائهم، فالوزير مؤيد الدين ابن العلقمي العلوي البغدادي(ت 656هـ/1258م) ، كان وزيرا للخليفة العباسي المستعصم بالله مدة أربع عشرة سنة ، كاتَبَ هولاكو ملك المغول، وطمّعه في العراق وشجّعه على غزوه، وتبادل معه الرسائل بواسطة أخيه وبعض مماليكه، والخليفة غافل عما يجري، لأن ابن العلقمي حجب عنه المكاتبات. ولما وصلت جيوش المغول إلى بغداد وحاصروها؛ خرج الوزير لاستقبال هولاكو، فلما التقى به نصحه ابن العلقمي بقتل الخليفة ولا يقبل منه نصف خراج العراق، وقال له أيضا: إن لم تقتله لا يتم لكم ملك العراق. ثم عاد الوزير مع المتكلم الشيعي نصير الدين الطوسي إلى دار الخلافة، بعدما كان قد غادرها الخليفة إلى هولاكو، واستخرجا كنوز خلافة بني العباس، ورجعا بها إلى هولاكو، وبعد ذلك قَتَل الخليفة وأعوانه وتعرّضت بغداد للتدمير والنهب والإبادة[234].

وأما الأهداف التي كان يرجوها ابن العلقمي من تعاونه مع المغول وخيانته للسنة، فمنها: القضاء على الخلافة العباسية السنية وتعويضها بخلافة شيعية علوية، وتدمير المؤسسات العلمية السنية، وكانت كثيرة جداً، وإبقاء مشاهد الشيعة ومحالهم، وبناء مؤسسات علمية جديدة للشيعة لرفع رايتهم ونشر مذهبهم، وكسر شوكة أهل السنة والانتقام منهم[235].

وأما الأسباب التي أوصلته إلى التآمر على السنة وخيانتهم، فيبدو أن أهمها: العداء القديم القائم بين العباسيين والشيعة العلويين بسبب الخلافة، الثاني هو تعصبه المذهبي وحقده الدفين على السنة وبغضه لهم، خاصة بعد فتنة (655هـ/1257م)، بين السنة والشيعة التي جعلته يعزم على الانتقام لطائفته بالتعاون مع المغول، والتآمر معهم على السنة[236]، لكن هذه الفتنة ليست مسوغا ولا مبررا لما أقدم عليه ابن العلقمي ولا تعفيه من المسؤولية، لأن الفتن بين الطائفتين ليست جديدة، فهي سجال بينهما منذ عدة قرون، تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة. كما أن هذه الفتنة – أي فتنة (656هـ/1258م) – يتحمل هو وطائفته مسؤوليتها، لأنهم تسببوا فيها، وذلك أنه استغل نفوذه في الدولة – لطول مدة وزارته- في نشر الرفض والتعصب على أهل السنة، الأمر الذي جعل السنة يتصدون له ولطائفته بحزم[237].

أما القول إن ابن العلقمي كان ينصح الخليفة ويُحذره من المغول؛ فهو مجرد تضليل وخِداع، فكان يُراسل المغول ويتظاهر للخليفة بالنصح والتحذير، وهذا سلوك يندرج ضمن عقيدة التقية عند الشيعة، فهي من أسس مذهبهم المعروفة، هذا إن كان فعلا قد نصحه على حد زعم ابن طباطبا[238]. كما أن زعمه هذا مردود عليه بسلامته في دولة المغول، إذ لو كان لم يتآمر على الخليفة ما وثق فيه المغول، لأن الذين كانوا مخلصين للخليفة قتلهم المغول، كمحيي الدين يوسف بن الجوزي[239]، والدويدار الصغير، وأما الذين خانوه فهم الذين لم يقتلهم المغول، وهولاكو قد وثق في ابن العلقمي لأنه تأكد من إخلاصه ووفائه له، وليس كما زعم ابن طباطبا.

ويمكن أن نستشف من كلام ابن طباطبا أنه هو شخصيا كان مؤيدا للمغول ولابن العلقمي في تعاونه مع المغول، على حساب الخليفة وأعوانه وأهل السنة ببغداد، بدليل أنه مدح المغول وابن العلقمي معا، واعتبر إسقاط المغول لبغداد فتحا، عندما قال : "فإن السلطان هولاكوا لما فتح بغداد" ، وفلما فُتحت بغداد[240]. فاحتلال وتدمير بغداد وإبادة أهلها وعلمائها وتدمير المؤسسات العلمية كان فتحاً في نظر ابن طباطبا.

إن قتل المغول للخليفة ورجاله، وعدم قتلهم لابن العلقمي ومن دخل بيته، ومكافأتهم له بتعيينه حاكما على بغداد عندما غادروها، هو دليل دامغ على تعاونه

معهم وخيانته للسنيين، ولو لم يكن كذلك ما تركوه ولا كافئوه. ومن الشواهد أنه لما حدثت فتنة (655هـ/1257م)، ودارت فيها الدائرة على الشيعة؛ كتب ابن العلقمي رسالة إلى أحد أصحابه أخبره فيها بما حلّ بشيعة الكرخ، وتوعّد فيها السنة بأنه سيأتيهم بجنود لا قبل لهم بها، وليخرجنهم من بغداد أذلة وهم صاغرون[241].

وهناك شاهد آخر؛ هو أن جيش المغول لما قصد العراق كان من ضمنه جماعة من شيعة الكرخ[242] وهي إحدى محلات بغداد التي كان يسكنها اليهود والشيعة. فماذا كان يفعل هؤلاء مع جيش المغول؟! ومن الذي أرسلهم من بغداد إلى جيش المغول؟!، ولماذا أُرسلوا إلى جيش المغول؟، ولماذا هم من الشيعة وليسوا من السنة؟!، أليس وجود هؤلاء في جيش المغول شاهد قوي على وجود التآمر الشيعي مع المغول؟.

والشاهد الخامس مفاده أن القائد المغولي "بايجو نوين" عندما دخل بغداد واستباحها وخرّبها واتصل بالخليفة المستعصم كتابيا، أخبر ابن العلقمي هولاكو بأن قائده بايجو نوين كاتَبَ الخليفة، فطلبه هولاكو وقتله[243]. فهذا شاهد قوي على تعاون ابن العلقمي مع هولاكو وأنه كان في خدمته، وأنه من أعوانه الذين يثق فيهم، حتى أنه قتل قائده الكبير برسالة وصلته من ابن العلقمي. فلماذا راسله؟، وهل كان نائبه وعينه على الخليفة وما يجري في بغداد؟، ولماذا لم يُحاول استغلال ما حدث لإضعاف جيش المغول لصالح أهل بغداد، بدلاً من إخبار هولاكو بما حدث؟.

والشاهد السادس يتمثل فيما رواه المؤرخ ابن الفوطي (723هـ/1323م))، وكان معاصرا للأحداث، من أن المغول لما وصلوا بغداد ذهب إليهم الوزير ابن العقمي وقد خرج (إلى خدمة السلطان هولاكو في جماعة من مماليكه وأتباعه، وكانوا ينهون الناس عن الرمي بالنشاب، ويقولون: سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا، هذا وعساكر المغول يُبالغون في الرمي) [244]. فهذا شاهد قوي أيضا على أن ابن العلقمي كان متعاونا مع المغول، لأنهم عندما وصلوا إلى بغداد خرج إليهم لخدمة هولاكو، وليس للدفاع عن الخلافة وبغداد وأهلها، وفي طريقه إليه كان هو وأتباعه يُثبّطون البغداديين عن القتال وينهونهم عنه، ويمنونهم بالصلح، في الوقت الذي كان فيه المغول يُبالغون في الرمي بالنبال!، فهل هذا سلوك من كان يُدافع عن أهل بغداد، أم هو سلوك من كان متآمرا عليهم خدمة للمغول ولمصالحه؟!.

والشاهد السابع والأخير؛ هو أن القرائن والشواهد التاريخية والمنطقية والدواعي المذهبية كلها تُدين ابن العلقمي وتُجرّمه بتعاونه مع المغول، وتآمره على الخليفة وأهل السنة، فالقرائن والشواهد التاريخية والمنطقية سبق ذكر طرف منها؛ وأما الدواعي المذهبية فهي أيضا متوفرة في جنب ابن العلقمي، فهو-كغيره من الشيعة- يُضلل السنيين ويُكفّرهم، ويرى في العباسيين طائفة مُغتصبة للخلافة،

اغتصبتها بقوة السلاح من الشيعة العلويين، فلماذا إذن لا يستغل فرصة وجود المغول بالتعاون معهم، ومع وزيرهم الشيعي نصير الدين الطوسي، للإطاحة بالعباسيين المغتصبين وأعوانهم السنة الضالين في اعتقاده هو؟.

وأما النموذج الثاني من تآمر الشيعة على السنة؛ فيتعلق بالمتكلم نصير الدين الطوسي (ت672هـ/1276م)، فقد كان وزيرا مُخلصا لهولاكو، وجاء معه إلى بغداد، وشجّعه على غزوها، فعندما استشار هولاكو أحد من المنجمين في دخول بغداد، حذره إن هو دخلها ستحدث كوارث طبيعية تصيب الخيول والجنود، لكنه عندما سأل وزيره النصير الطوسي عن ذلك، نفى ما قاله المنجم، وقال له: إنه لن يحدث شيء من ذلك، وإنك ستدخل بغداد لتحل محل الخليفة[245]، وعندما وصلوا على بغداد واتصل بهم ابن العلقمي، وأتى لهم بالخليفة، أشار النصير الطوسي على هولاكو بقتل الخليفة المستعصم، ثم ذهب مع ابن العلقمي إلى دار الخلافة واستخرجا كنوز الخلافة العباسية ورجعا بها إلى هولاكو[246]؛ ورضيا أن يكونا مخلصين للمغول خائنين للإسلام والمسلمين، انتصارا للباطل، وطلبا للدنيا، وتعصبا على أهل السنة.

3- أهـل الذمـــة:

كان أهل الذمة يمثلون فئة دينية في المجتمع، وأهل الذمة هم القاطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين، وسموا بهذا الاسم لأنهم كانوا في ذمة المسلمين، دفعوا الجزية فتم تأمينهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، لذلك فمفهوم أهل الذمة يشمل اليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وقد تمتعوا بكثير من التسامح وإقامة الشعائر في أمن وأمان[247].

وقد حرص اليهود الذمة على ممارسة الأعمال والمهن التي تدر الأموال[248]، فتركز عمل اليهود في الأنشطة المالية، ومنها التجارة[249] والصياغة[250] والجهبذة [251]، وفي الجهة المقابلة يلاحظ المتتبع أن الكثير من النصارى عملوا في مهن معينة اشتُهروا بممارستها مثل الطب[252]، والكتابة في الدواوين[253]، وصناعة العطور[254].

ويبدو أن أهل الذمة قد استشروا في أجهزة الدولة، وصار لهم وضعاً اجتماعياً مميزاً، وهو ما دفع إلى استصدار مرسوم يمنع استخدام أهل الذمة في الدواوين[255]، وأُشير على الخليفة الناصر أن يتروى في هذا الأمر لأن الأموال في أيديهم وأوراق الدواوين ويمكن أن يخفوها[256]، وكان من أشهرهم آنذاك والذي يعدون من علماء فترة الدراسة ابن زطينا (ت636هـ/1238م) [257]، وابن الأشقر(634هـ/1237م)[258] كاتب ديوان العرض[259].

وتبدو أخبار اليهود قليلة في المصادر، إلا أنه في سنة (654هـ/ 1256م) غرقت بغداد، وكان علو الماء في المدرسة النظامية حوالي أربعة أذرع، وعمل اليهود سِكّراً في رأس بين الدربين ودرب القيَّار[260]، وساعدهم المسلمون على عمله، فنازعهم فيه من يتعدى ضرره إلى مُلْكه، وجرت خصومات، وأشهر اليهود السلاح، ونادوا: (يا آل خيبر)، فقبض الشحنة على جماعة منهم، فضربهم وشوه خلقهم، وشهرهم ونودي عليهم: "هذا جزاء من شهر السلاح على المسلمين، وقال: (يا آل خيبر)" [261].

ومن أشهر علماء النصارى في فترة البحث "فرج الله" صاعد بن هبة الله بن توما، المعروف بفضائله، وكان طبيباً وكاتباً ووزيراً لنجم الدولة نجاح الشرابي، ثم صار من خاصة دار الخلافة، وعمل جاثليقاً[262]، وتوفي سنة (622هـ/1223م) بعد توليه الجاثليقية ثلاث سنوات[263]. وما لبث أن تولى بعده أبو الفضل أبي الخير، سبريشوع بن المسيحي، وهو من أسرة الأطباء البغداديين الذين ذاعت شهرتهم[264]، وكان ذلك في عهد الخليفة الظاهر، ودامت جثلقة ابن المسيحي واحداً وثلاثين عاماً، في خلافة الظاهر والمستنصر والمستعصم، حتى بلغ التسعين عاماً.

وفي سنة (643هـ/1245م) توفي شمس الدولة؛ أبو الخير؛ سهل بن توما النصراني اليعقوبي، والذي كان مقربا للخلفاء، وبُسطت يده في الأموال والتصرف في الأعمال، وكان الخليفة المستنصر يراسل به الوزير القمي، فلما تُوفي قُبض على أمواله وأملاكه وذخائره، ونُقلت على دار الخلافة، وقُدرت أمواله بمئة ألف دينار، ويشير صاحب الحوادث إلى أنه في نفس السنة المذكورة خُلِع على أخويه فخر الدولة ماري وتاج الدولة ابي طاهر، ورُتِب الأول في جميع الأشغال التي كانت موكلة لأخيه من الوكالات للأبواب والنظر في الأقْرحة وغير ذلك، ورُتب الثاني وكيل باب عنبر المختص بابنة الخليفة المستنصر[265]. وتوفي في سنة (654هـ/1226م)، وتولى بعده مرمكيخا النَّصيبي[266]، وكان من أشهر الأدباء إضافةً إلى علمه الواسع في أمور الديانات.

ولم يتوقف النصارى عن حقدهم على الفقيه العالم ابن فضلان[267] صاحب ديوان الجوالي لموقفه المتشدد من توظيف أهل الذمة في الدواوين، فتورد المصادر النصرانية إجباره أبا عليَّ بن المسيحي ساعور المارستان العضدي على الحضور لأداء الجزية في مواعيد العمل الرسمية، بعدما تمارض، وقال إنه سيدفعها عندما يزور دار الخلافة ليلاً، ومثله أحد رؤساء اليهود الذي أراد المجيء بعد المغرب، وكان على الجميع الخضوع لهذه الإجراءات المذلة، وإن كان قد عوضها النصارى بحصولهم على بعض المناصب المهمة، ففي العام (631هـ/1232م) وبوساطة ابن

حاجب القيصر[268] صار هبة الله بن زطينا[269] في رئاسة الديوان، ثم تم تعيينه كاتباً للسكَّة[270].

وختاما.. يتبين بعد استعراض العوامل المؤثرة على الحياة العلمية في العصر العباسي الأخير؛ أن العوامل الجغرافية كانت عاملاً مساعداً بقوة على استمرار النهضة العلمية التي كان قد بدأها الخليفة الناصر لدين الله، وأما العوامل السياسية الداخلية والخارجية فعلى الرغم من تأثيرها السلبي على الحياة العلمية التي تحتاج إلى الاستقرار السياسي؛ إلا أن إنشاء الصرخ الشامخ المعروف بالمدرسة المستنصرية سيساهم بلا شك في النهضة العلمية، كما أن العوامل الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة؛ وعوامل اجتماعية، على حد ما مستقرة وتسمح بنهضة علمية مزدهرة، وأما العوامل الدينية؛ فقد كان التعصب المذهبي في قمة مظاهره، ولا شك أنه سيؤثر على الحياة العلمية، ويمكن القول إنه بقدر ما خسر المسلمين بسقوط بغداد العباسية؛ بقدر ما خسرت الحضارة الإنسانية

الهوامش

(1) انظر: محمد مكية، **بغداد**، لندن: دار الوراق للنشر، 2005م، ص123.

(2) باب كلوذا: هو باب البوصيلة. أحد أبواب سور دار الخلافة، وسمي "كلوذا". لأن الطريق الخارج منه يؤدى إلى قرية كلوذا في الجانب الشرقي من بغداد. ياقوت الحموى، **معجم البلدان**، ج4، تحقيق، محمد عبد الرحمن مرعشلي، بيروت، مطابع دار احياء التراث العربي، 1996م، ص477.

(3) ابن الساعي، **الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير**، ج9، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، 1353م، ص ص119-202.

(4) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، وقف على طبعه الأب أنطون صالحاني اليسوعي، ط1، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين،1890م، ص423.

(5) الغساني، **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في تاريخ الملوك**، تحقيق، شاكر عبدالمنعم، بغداد، دار البيان، 1975م، ص395.

(6) مجهول، **الحوادث**، المسمى الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق، بشار عواد وعماد عبدالسلام رؤوف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997م، ص68.

(7) عانة: بلد مشهور بين الرقة وهيت من أعمال الجزيرة الفراتية. ياقوت، **معجم البلدان**، ج4، ص72.

(8) الحديثة: هناك حديثتان، الأولى تدعى حديثة الموصل على دجلة بالجانب الشرقي، والثانية حديثة الفرات، وتعرف بحديثة النورة، وهي على مقربة من الأنبار. ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، ص230.

(9) الفلوجة: والفلوجة الكبرى قريتان كبريتان من سواد بغداد قرب عين التمر. ياقوت، **معجم البلدان**، ج4، ص275.

(10) مجهول، **الحوادث**، ص234.

(11) مجهول، **الحوادث**، ص134.

(12) دجيل: اسم لنهر مخرجه من أعلى بغداد. ويجرى بين بغداد وتكريت. ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، ص443.

(13) نهر عيسى: عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس. عرف النهر بهذا الاسم، يقع في غرب بغداد ومأخذه من الفرات عند قنطرة دمما. ياقوت، **معجم البلدان**، ج5، ص ص322-323.

(14) نهر الملك: ويسمى أيضاً بهيأة الملك. ويقع بعد نهر عيسى. ياقوت، **معجم البلدان**، ج5، ص324.

(15) مجهول، **الحوادث**، ص186؛ أحمد سوسة، **فيضانات بغداد في التاريخ**، بغداد، د.ن، 1963م، ص342.

(16) مجهول، **الحوادث**، ص ص187، 229؛ أحمد سوسة، **فيضانات بغداد**، ص342.

(17) المغول: قبائل موطنهم الأصلي منغوليا (شمال صحراء غوبي)، وكانت هذه القبائل تقضي أوقاتها في النزاعات القبلية والبحث عن منابت العشب، دانت بالوثنية التي تعرف باسم الشامانية، وبدأوا يتدفقون من موطنهم الأصلي إلى حدود العالم الإسلامي خلال فترة وجيزة

وأسسوا إمبراطورية ممتدة الأطراف من المحيط الهادي شرقاً إلى أوروبا غربا، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً، وإلى الهلال الخصيب وبادية الشام جنوباً. السيد الباز العريني، **المغول**، بيروت، دار النهضة، 1981م، ص ص28-34.

(18) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج10، تصحيح، محمد يوسف الدقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987م، ص459؛ اليافعي، **نشر المحاسن الغالية في فضائل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، المسمى "كفاية المعتقد ونكاية المنتقد"**، ج4، القاهرة، د.ن، 1961م، ص135؛ مجهول، **الحوادث**، ص233، 273، 278، 303، 317، 319؛ انظر: أحمد سوسة، **فيضانات بغداد** ، ص342.

(19) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان وتاريخ الأعيان**، ج8، ق2، حيدر أباد، الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1952م، ص636؛ الإربلي، **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**، تصحيح، مكي السيد جاسم، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص285؛ الكازروني، **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، تحقيق، مصطفى جواد وسالم الألوسي، بغداد، د.ن، 1970م، ص256.

(20) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ق2، ص636؛ الإربلي، **خلاصة الذهب**، ص258؛ الكازروني، **مختصر التاريخ**، ص256.

(21) سبط بن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ق2، ص636.

(22) الفتوة: الفتى في اللغة: الشاب الحدث قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾. وهي مصطلح أخلاقي يحتوي الصفات المحببة والخصال المحمودة التي يجب أن يتحلى بها الشباب ليتميزوا عن غيرهم، وللفتوة مراتب ومراسم مخصوصة، حيث يلبس العضو الجديد سراويل الفتوة ويشرب شرابها المكون من الماء الذي هو أصل الحياة وقوامها، والملح الذي هو من دوام الحال ويحفظ من التبدل والتغيير، وصار للفتوة قوانين صارمة فمن يخالف النقيب الذي هو رأس التنظيم تهدر فتوته ويطرد من التنظيم. ابن المعمار، **الفتوة**، تحقيق، مصطفى جواد وآخرون، بغداد، د.ن،1960م، ص ص130-131؛ ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج9، ص221.

(23) بلاد العجم: بلاد فارس وهى ولاية واسعة وإقليم فسيح، أول حدودها من جهة العراق، ومن جهة كرمان، ومن جهة ساحل بحر الهند، ومن جهة السند. ياقوت، **معجم البلدان**، ج4، ص226.

(24) ابن طباطبا، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، القاهرة، د. ن، 1899م، ص ص 236-239.

(25) النقيب المقصود من ذوي الأنساب من العباسيين الذين كانوا يقلدون بعض المهام من قبل الخليفة، ومنها الإشراف على ما يخص شئون العباسيين الخاصة، وإقامة الحدود بينهم، وما يتعلق بالمؤدبين والمكتبين الذين يشرفون على تعليم ابنائهم، ويزداد اهتمامهم إذا كان المكلف بالتدريس ينتمى إلى العباسيين، كذلك كانوا يحضرون احتفالات إقامة المدارس والمساجد وغيرها. ابن الأثير، **المثل الثائر فى أدب الكاتب والشاعر**، ج1، تحقيق، أحمد الحوفي،

القاهرة، مكتبة النهضة، 1959م، ص ص287-295؛ ابن عنبة، **عمدة الطالب في أنساب آل أبى طالب**، بغداد، المطبعة الحيدرية، 1960م، ص17.

(26) عبدالقادر بن عبيد الله ابن المنصوري بن أبي الفضل الهاشمي، من ولد المنصور ﷺ، أحد خطباء الجمع عن أبيه عن جده، خطب بجامع السلطان، وهو من بيت علم. ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام بغداد**، ج4، تحقيق، الدكتور بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2006م، ص261؛ وذكر المنذري: تاريخ وفاته لتأخر ابن المنصوري عن ابن الدبيثي.

(27) هبة الله بن محمد بن أبي الحسن الهاشمي الخطيب، أحد الشهود المعدلين هو ووالده، شهد عند قاضي القضاة ابن الدافعاني، وتولى الخطابة بجامع القصر. ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج3، ص163.

(28) نسبة لآل أبى طالب، وتنظر في خمسة أشياء: الحكم بين المتنازعين، والثاني الولاية على الأيتام، والثالث إقامة الحدود، الرابع تزويج الأيامي، الخامس إيقاع الحجر على من عته منهم، فيصير بهذا الخمس عامة النقابة فيعتبر حينئذ صحة نقابته وعقد ولايته أن يكون عالماً من أهل الاجتهاد وينفذ قضائه. الماوردي، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تصحيح، محمد النعساني، القاهرة، مطبعة الباب الحلبي، 1966، ص97؛ ابن عنبة، **عمدة الطالب**، ص19.

(29) الحسن بن علي بن حمزة بن محمد بن الحسن000 ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بابن الأقساسي، نقيب فاضل ببيت مشهور بالتقدم والفضل، وتولى نقابة العلويين بالكوفة مدة، ثم قدم بغداد وسمع بها الحديث، وله شعر جيد، ومدح الخليفة الناصر لدين الله، تولى نقابة العلويين. ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج1، ص497؛ مجهول، **الحوادث**، ص186.

(30) نصر بن عبدالرزاق ابن الشيخ عبدالقادر الجيلي الحنبلي، تفقه على أبيه وغيره وتكلم في الخلاف وأجاد، ودرّس في مدرسة جدة وبالمدرسة الشاطئية، وسمع الحديث ورواه، وجمع لنفسه أربعين حديثاً ورواها، ولد سنة (564هـ/1169م). ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج5، ص75؛ المنذري، **التكملة لوفيات النقلة**، ج3، ط2، تحقيق، بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م، ترجمة (2667)؛ ابن الفوطي، **مجمع الآداب في معجم الألقاب**، ج4، تحقيق، مصطفى جواد، دمشق: المطبعة الهاشمية، وزارة الإرشاد القومي، مطبوعات إدارة التراث، 1962م، ترجمة (1295).

(31) شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني مدرس النظامية، والذي استدعاه الخليفة المستنصر إلى دار الوزارة فراح يلقي الدروس، وعزل وعاد بلا طرحة، وكان له رباط للصوفية يتم فيه التدريس والإقراء. مجهول، **الحوادث**، ص17.

(32) عماد الدين أبو بكر محمد بن يحيى السلامي المعروف بابن الحُبير، وخلع عليه، وأقر على تدريسه بمدرسة فخر الدولة بن المطلب بعقد المصطنع، وعلى المدرسة الاسبهبذية بين الدربين، وترقى وظائف عديدة، وعين قاضيا في عهد الخليفة المستنصر. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج2، تحقيق، جماعة من المحققين، نشر المعهد الألماني، د.ت، ص ص109،

.202

(33) قاضى القضاه كمال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن إسماعيل اللمغاني، ثم البغدادي الحنفي، مدرس المستنصرية، حدث عن أبيه القاضى أبي محمد، وروى عنه الدمياطى في "معجمه"، فقال: أخبرنا قاضى القضاه شرقاً وغرباً كمال الدين، قلت: تخرج به آئمة في مذهب أبى حنيفة، وعاش 85 سنة. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج23، تحقيق، شعيب الأرناؤوط وبشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م، ص250.

(34) مجهول، **الحوادث**، ص186.

(35) عضد الدين أبو نصر المبارك بن الضحاك، وكان شيخاً دينا فاضلا اديبا، وكان من المعدلين ببغداد، ورُتب ناظرا بديوان الجوالي، وكتب في ديوان الإنشاء، وبعث رسولاً إلى صاحب الشام، ولما عاد رُتب أستاذ دار الخلافة إلى أن توفي. ينظر، مجهول، **الحوادث**، ص34.

(36) أستاذية الدار: وظيفة يتولى صاحبها إدارة شؤون دار الخلافة ونفقاتها وأمور الأسرة العباسية المقصورة في دار الخلافة كإخوان الخليفة وأعمامه وأبناء عمومته. القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج3، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت، ص174.

(37) أحمد بن الناقد أبو السعادات بن أبي القاسم، كان من أولاد التجار والبزازين، حفظ القرآن وأدب نفسه فى تحصيل العلم والأدب وتجويد الخط، ولما توفي والده رد إليه ما كان يتولاه أبوه وهو: وكالة الباب الشريف لوالدة الخليفة الناصر (582هـ/1186م) فى وقوفها بعد موتها إلى أن عزل، ثم ولاه الخليفة الظاهر رعاية ابنائه، وولاه الخليفة المستنصر الوكالة إلى أن توفي ابن الضحاك فأضاف إليه أستاذية الدار، وبعد القبض على ابن القمى ولاه المستنصر الوزارة إلى أن توفي. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ص747؛ مجهول، **الحوادث**، ص ص122-123.

(38) مجهول، **الحوادث**، ص187.

(39) محمد بن أحمد بن علي أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي، وزير الخليفة المستعصم العباسي وهو من أهالي الحلة السيفية، وقضى فجر حياته الأولى فيها وله من الأبناء ولدان أحدهما: شرف الدين أبو القاسم علي والذي تولى منصب الوزارة بعد وفاة أبيه، والآخر أبو الفضل محمد، وكان ابن العلقمي عالماً وشاعراً، بدأ رحلته العلمية في الحلة، وبعد ذلك ذهب الى بغداد ليدرس علم الحديث عند أبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري فسمع الحديث عنده، ودخل ابن العلقمي ميدان السياسة عن طريق خاله عضد الدين ابن الضحاك، وبعد أن توفي ابن الناقد نُصِّب ابن العلقمي وزيراً مكانه وارتقى إلى رتبة الوزارة سنة (642هـ/1244م) فوليها أربعة عشر عاماً. ووثق به «الخليفة المستعصم» فألقى إليه زمام أموره، وكان حازماً خبيراً. الذهبي، **تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ج48، تحقيق، بشار عواد، بيروت، دار الغرب الإسلامى، 2003م، ص29؛ الغساني، **العسجد المسبوك**، ج2 ص571؛ الديار بكري، **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، ج2، د. ط، القاهرة: د.ن، 1964م، ص276؛ مجهول، الحوادث، ص122؛

(40) ديوان الزمام: هو المنوط به الإشراف على كل دواوين الدولة، وكان يعرف في عصر الخليفة الناصر بـ (الديوان العزيز)، وديوان زمام الأزمة ، وكان صاحبه رفيع المنزلة، فوصف بأنه

صدر الصدور. الأيوبي، **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق، حسن حبشي، د. ط، القاهرة، مكتبة عالم الكتب، 1968م، ص ص14 ، 15 ، 73 ، 171.

(41) تاج الدين أبو الحسن علي بن الأنباري الواسطي، ولد بواسط ثم قدم بغداد وخدم ناظرا في ديوان العقار، ثم رتب ناظرا بديوان واسط، ثم عزل ورتب مشرفا في البلاد الحلية، ثم ناب في أعمال المخزن، ثم ولي إشراف الديوان، ثم نقل إلى صدرية أعمال المخزن. مجهول، **الحوادث**، ص90.

(42) عز الدين ابو زكريا يحيى بن المبارك بن علي بن المبارك ... المخرمي، شيخ خيّر متديّن، من بيت معروف بالأصالة والعدالة والعلم . مجهول، **الحوادث**، ص167.

(43) شرف الدين إقبال الشرابي، كان شرابى الخليفة المستنصر ثم الخليفة المستعصم، ثم صار قائداً للجيوش العباسية. ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ج4، ص762.

(44) مكين الدين أبو الحسن محمد بن محمد بن عبدالكريم القمي، من أبرز علماء الشيعة، وصار كاتباً لديوان الإنشاء ثم انتقل للوزارة ولقب بمؤيد الدين. ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج9، ص286.

(45) ديوان الانشاء: وكانت مهمته صياغة الكلام، وترتيب المعاني، من المكاتبات والولايات والمساحات والاطلاقات ومناشير الاقطاعات والأمانات ومافي معنى ذلك. القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج1، ص ص54-55.

(46) صالح بن عبدالله الأسدي، الكوفي، الحنفي، الفقيه، النحوي، المعروف بابن الصباغ، ولد بالكوفة وقد حفظ القرآن وتفقه على علماء عصره وبرع في الأصول والنحو والتفسير والأدب واللغة، وانتهت إليه رأسة الحنفية، وعرض عليه التدريس في المستنصرية، وولاه الخليفة المستنصر كتابة العدل. الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص443.

(47) دار الروم: تقع في الجانب الشرقي من بغداد ضمن محلة الشماسية، وبها أكثر مساكن المسيحيين، وسميت دار الروم نسبة إلى الأسرى الروم الذين أنزلوا فيها في عهد الخليفة العباسي المهدي. ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص64.

(48) ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص466؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج17، بيروت، مكتبة المعارف، 1988م، ص273؛ خالد عزام، **موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر العباسي**، 132هـ/656م، عمان، دار أسامة للنشر، 2009م، ص150.

(49) ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص465؛ الإربلي، **خلاصة الذهب**، ص286؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج17، ص151.

(50) الإربلي، **خلاصة الذهب**، ص285؛ ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ص158؛ المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج1، ق2، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1934م، ص ص311-312؛ ينظر: محمد صالح القزاز، **الحياة السياسية في العصر العباسي الأخير**، بغداد، مطبعة القضاء، 1971م، ص81.

(51) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص445-446؛ ابن طباطبا، **الفخري**، ص244؛ أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، ج3، بيروت، دار الكتب العلمية، 1979م، ص176؛ الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، د . ن، 1973م، ص237؛

السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ط2، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 2003م، ص185؛ الديار بكري، **تاريخ الخميس**، ج2، ص420.

(52) السلطان الملك الناصر داود بن السلطان الملك المعظم عيسي بن العادل، مولده بدمشق سنة 603هـ/1207م، وكان فقيهاً حنفياً ذكياً، مناظراً، أديباً شاعراً، تسلطن عند موت أبيه، وأحبه أهل البلد، فأقبل عماه الكامل والأشرف، فحاصراه أشهراً، ثم انفصل عن دمشق فى سنة (626هـ/1229م)، وقنع بالكرك، واعطوه معها نابلس وعجلون والصلت وقرى بيت المقدس. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص376.

(53) يوسف الناصر بن محمد العزيز بن الظاهر ابن الناصر صلاح الدين بن أيوب، (627-659هـ/1230-1261م)، وهو أخر ملوك الأيوبيين، ولد بقلعة حلب وولى الملك فيها بعد وفاة والده سنة (634هـ/1237م) وعمره نحو سبع سنين، وقتله هولاكو سنة (658هـ/1260م) بعد هزيمة عين جالوت وقد تجاوز عمره الثلاثين بقليل. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص204.

(54) المقريزي، **السلوك**، ص ص237-238.

(55) أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، ج3، ص200.

(56) الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص237.

(57) ابن طباطبا، **الفخري في الآداب السلطانية**، ص244.

(58) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص517.

(59) علاء الدين طبرس وهو رجل كبير المطامع. كان دويدار الخليفة الظاهر بالله، وكان حظياً عنده ابتاعه من أحد المماليك، وهو من كبار الحاشية. فلما استخلف المستنصر بالله قدمه وقربه إليه. مجهول، **الحوادث**، ص209.

(60) ابن طباطبا، **الفخري**، ص247؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص185.

(61) العيار: لغوياً: الكثير التجوال والطواف بلا عمل. الشاطر: لغوياً: من أعيا أهله خبثاً وعاش في الخلاعة. ولقد ظهر العيارون ببغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة/الثامن للميلاد، وكانوا يزدادون قوة كلما ازدات الدولة ضعفاً، وفي العصر الأخير تسلط العيارون على بغداد وفرضوا سطوتهم على الأسواق، وانتظموا انتظام الشرطة. أما الشطار فكانوا يمتازون بملابس خاصة بهم، وكانوا أكثر انتشاراً من العيارين وأطول بقاءاً منهم. ابن منظور، **لسان العرب**، ج10، ط6، بيروت، دار صادر، 2008م، ص350؛ محمد رجب النجار، الشطار والعيارين، **عالم المعرفة**، ع 45، الكويت، 1981م، ص ص5 – 10.

([62]) Osborn, (1876)**, Islam under the Caliphs of Baghdad**. London, p.400.

(63) Osborn, **Islam under the Caliphs of Baghdad**, p. 402.

(64) ينظر: **الراوندي، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**، ترجمة، إبراهيم الشواربي وآخرون، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، 1960م، ص348؛ البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق**، بيروت، دار الآفاق، 1978م، ص239؛ رفعة بنت سعيد الغامدي، **الحياة العلمية في عصر الخليفة الناصر لدين الله**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك عبدالعزيز، 2008م ، ص33.

(65) القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، دار صادر، 1960م، ص41؛ القزاز، **الحياة السياسية**، ص40.

(66) حفظ القرآن وبرع في العلوم والسير والتاريخ والأشعار وله نظم حسن، مجهول، **الحوادث**، ص128.

(67) مقدم جيش العراق، وصف بالشجاعة والإقدام، كان يقول: "لو ممكننى أمير المؤمنين المستعصم لقهرت التتار ولشغلت هولاكو بنفسه". الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص321.

(68) Mohammed Rashad (1963), The Abbasid Caliphate (575/1179-656/1258), University of London, London (1963). Thesis; pH. D., P. 82.

ينظر أيضاً: مجهول، **الحوادث**، ص128.

(69) بعقوبا: قرية كبيرة من أعمال طريق خراسان، كثيرة الأنهار والبساتين يجري في وسطها نهر جالولا، وبها حمامات ومساجد وينتسب إليها جماعة من أهل العلم. ياقوت، **معجم البلدان**، ج1، ص 453؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص444.

(70) أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، ج3، ص182؛ الديار بكري، **الخميس**، ج2، ص415.

(71) هولاكو بن تولى بن جنكيز خان مؤسس دولة المغول الألخانية بإيران سنة (649هـ/1251م)، وهو حفيد جنكيز خان، قطع نهر موديريا وأخضع أمراء الفرس والاسماعيلية، وقضى على الخلافة العباسية فى بغداد (656هـ/1258م) واحتل سوريا وعاد إلى إيران بعد موت أخيه مانكوخان، هاجم المسلمون جيشه وأبادوه سنة (658هـ/1260م) وخلفه ابنه أباقا إيلخان. ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص ص284-285.

(72) Osborn, **Islam Under The Caliphs**, p. 400.

(73) ينظر في ذلك: أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، ج3، ص202؛ ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج5، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1971م، ص542؛ الديار بكري، **الخميس**، ج2، ص420؛ القزاز، **الحياة السياسية**، ص51.

(74) ينظر في ذلك: أبو الفدا، **المختصر في أخبارالبشر**، ج3، ص202، 205؛ ابن خلدون، **العبر**، ج5، ص ص542-546؛ الديار بكري، **الخميس**، ج2، ص420.

(75) الخوارزميون: ينتسب الخوارزميون إلى مملوك تركى يدعى نوشتكين كان يعمل في البلاط السلجوقى، واستطاع بمهارته أن يرتقى في خدمة السلاجقة حتى تم تعيينه كحاكم على خوارزم ويؤسس أسرة الخوارزميين هناك. ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص127؛ انظر: حافظ أحمد حمدي، **الدولة الخوارزمية والمغول**، القاهرة، دار الفكرالعربي، 1949م، ص ص25 – 35.

(76) جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه علاء الدين محمد تكش وتولى الحكم بعد أبيه بعد تراجع والده عن الوصاية لأخيه الأصغر لتأكده أن جلال الدين هو المستطيع حماية الدولة الخوارزمية، وحكم في الفترة من (616- 628هـ/1220-1231م). النسوي، **سيرة السلطان**

جلال الدين منكبرتي، تحقيق، حافظ حمدي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1953م، ص56؛ حافظ حمدي، **الدولة الخوارزمية**، ص ص162- 163.

(77) تأسست دولة القراخطاى على يد زعيمهم يليؤي داشي (518- 539هـ/1124-1144م) في إقليم منشوريا بالصين الحالية، واستطاع يليؤي ان يوسع نفوذ القراخطاى في أواسط آسيا حتى بسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر وأخضع الخوارزميين لنفوذه. وللمزيد عنهم انظر:

- Biran, M. **The Empire of the Qara Khitai in Eurasian History: Between China and the Islamic World**, (Cambridge, 2005) p. 67.

(78) فتحي أبو سيف، الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، ط1، القاهرة، دار الآفاق العربية، 2014م ص ص359 - 360

(79) عيسى بن أبي بكر بن أيوب ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص وما بين القدس حتى المدينة المنورة وقام بدور كبير مع أخويه الكامل والأشرف موسى في التصدي للحملات الصليبية وخاصة الحملة الصليبية الخامسة. أبو شامة، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين، المعروف بالذيل على الروضتين**، صححه، محمد زاهد الكوثري، ط2، بيروت، دار الجيل، 1974م، ص152؛ ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، ج1، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، إدارة الثقافة العامة، 1953م، ص5.

(80) النسوي، **سيرة السلطان**، ص209؛ المقريزي، **السلوك**، ج1، ق1، ص216؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة، المؤسسة المصرية، 1978م، ج6، ص257، 260. ينظر في تفصيل ذلك: رفعة بنت سعيد، **الحياة العلمية**، ص ص63-65.

(81) النسوي، **سيرة السلطان**، ص220؛ القزاز، **الحياة السياسية**، ص60.

(82) Herbert Mason, Two Statesmen of Mediaeval Islam, Vizir Ibn Hubayra (499-560AH/1105-1165AD) and Caliph an-Nasir li Din Allah (553-622AH/1158-1225AD). Mouton. The Hague. Paris. 1972 .Library of Congress Catalog Card Number: 74 – 171096.

(83) غياث الدين محمود بن غياث محمد بن سام الغوري صاحب الغور وفيروز كوه، آخر ملوك الغورية ويذكر ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهاداً، وكان الغوري حليماً عادلاً كريماً، من أجمل الملوك سيرة، وأكرمهم أخلاقاً، وأرفقهم بالرعية، (ت604هـ/1207م). ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص337؛ ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج9، ص240.

(84) ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص275؛ النسوي، **سيرة السلطان**، ص242؛ ابن خلدون، **العبر**، ج5، ص132.

(85) ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص275.

(86) خلاط: مدينة عامرة من أرمينية الوسطى. ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، ص ص380-381.

(87) النسوي، **سيرة السلطان**، ص ص304-310.

(88) الغساني، **العسجد المسكوب**، ص147.
(89) ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص382؛ النسوي، **سيرة السلطان**، ص323-335.
(90) النسوي، **سيرة السلطان**، ص ص355، 370، 371؛ سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ص670؛ ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص430-431؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج6، ص277؛ مع التركيز دوماً على روايات النسوي الذي كان مرافقاً له في كل خطواته ومعاركه.
(91) النسوي، **سيرة السلطان**، ص ص372، 374، 377، 378.
(92) ديار بكر: تقع في الجزيرة بين دجلة والفرات، والجزيرة تشتمل على ديار مضر، وديار بكر. ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، ص134.
(93) الإسماعيلية: تنتسب الإسماعيلية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، الإمام السابع الذي نصبه الإسماعيلية إماماً لهم، ومن أهم مبادئهم إيمانهم بالإمامة، وسموا بـ(الباطنية) لا لأنهم يظهرون عكس ما يبطنون فحسب بل لأنهم يؤمنون بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً ظاهرا وباطنا، لذا عرفوا أيضا بالباطنية، وعرفوا أيضاً بـ (الحشيشية أو الحشاشين) لأنهم كانوا يأتون بمخدر الحشيش ويحرقونه في أماكن تواجد الحضور حتى إذا غابوا عن الوعي قادوهم إلى أحد البساتين في حضور النساء وأوهموهم أنهم في الجنة مع الحور العين، فإذا عادوا غداً طالبين الجنة بحورها العين فرضوا عليهم أفكارهم وجندوهم لخدمتهم. انظر: الشهرستاني، **الملل والنحل**، تحقيق، محمد سيد كيلاني، ج1، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، 1981م، ص ص32- 37؛ الغزالي، **فضائح الباطنية**، القاهرة، نشر عبدالرحمن بدوي، 1964م، ص ص11 - 17؛ محمد كامل حسين، **طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها وعقائدها**، القاهرة، د. ن، 1959م، ص ص28، 45 ، 81 ، 82.
(94) فتحي أبو سيف، الدولة العباسية، ص352.
(95) جلال الدين الحسن الثالث بن محمد الثانى (607-618هـ/1210-1221م) رفض عقائد الاسماعيليه من آبائه وأجداده وأحرق كتبهم وجاهر باسلامه، وقام بوصل حباله مع العالم الاسلامى وصار اتباعه يعرفون بالمسلمين الجدد. وللمزيد عنه انظر:
Daftary, F., **A Short History of the Ismailis.** (Edinburgh, 1998), pp. 106-108.
(96) ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص247.
(97) ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص429.
(98) جنكيز خان: أنشأ الامبراطورية المغولية، واخضع جميع الدول بين البحر الأسود والصين، واسمه الأصلى تيمو جين بن بشكوي، وسمى نفسه (جان كيز خان) أى (أعظم الحكام أو إمبراطور البشر)، اشتهر من سلالته باتوخان وهولاكو وتيمورلانك، وهو الذى خرب البلاد وأفني العباد واستولىى على الممالك، وليس للمغول ذكر قبله، وضع لهم دستوراً حربياً قوياً يسمي "اليساق" أساسه الطاعة العمياء لجنكيز خان، والاتحاد فى قبيلة واحدة، والعقاب الصارم لكل مخطئ، واحترام الكبير للصغير، توفي سنة (624هـ/1227م). الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج22، ص243.

(99) الذهبي، **دول الإسلام**، ج2، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، 1964م، ص95.
(100) النسوي، **سيرة السلطان**، ص76.
(101) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ق2، ص671.
(102) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص309.
(103) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص119.
(104) آمد: مدينة قديمة حصينة، تعد قاعدة إقليم ديار بكر بالعراق، وهي من أعمال مدينة الموصل. ياقوت، **معجم البلدان**، ج1، ص56.
(105) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ص284.
(106) ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ص212.
(107) ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ص212.
(108) ابن الفوطي ، **مجمع الآداب**، ص ص 93، 94.
(109) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص440.
(110) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص440.
(111) عباس العزاوي، **موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين**، ج1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2004، ص147.
(112) كان أولئك المماليك يسمون بأسماء أسيادهم من الخلفاء، فأصبحوا يعرفون بالمماليك الناصرية والظاهرية المستنصرية. انظر: ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ص ص168 ،170.
(113) ديوان العرض: مهمته الإشراف على عرض الجند استعداداً للقتال وتهيئة أقوات وسلاح الجيش، وصاحب الديوان يسمى العارض. مجهول، **الحوادث**، ص99.
(114) ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ص175.
(115) أبو المظفر الحسن بن محمد بن كر، وكان من الأمراء الأكابر. ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ج4، ق3، ص312؛ مجهول، **الحوادث**، ص354.
(116) سليمان شاه بن برجم الأبوائي أحد قادة الخليفة المستعصم بالله المشهورين وهو الذي أشار على الخليفة برفض مهادنة هولاكو، والاستعداد للحرب وكان له إلمام بعلم النجوم والكواكب. ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج4، ص201؛ مجهول، **الحوادث**، ص358.
(117) لمزيد من التفصيلات عن احتلال بغداد، انظر: ابن طباطبا، **الفخري**، ج1 ، ص ص287 – 290؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج1، الهند، دائرة المعارف العثمانية، 1960م، ص ص85-89؛ ابن الشحنة، **روض المناظر في علم الأوائل والأواخر**، تحقيق، سيد محمد مهنا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997م ، ص 259؛ الدواداري، **كنز الدرر وجامع الغرر**، تحقيق، أولرخ هارمان، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1971م، ج 8، ص ص 34-36، 194؛ مجهول، **الحوادث**، ص328.
(118) ينظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دراسة وتحقيق، محمد مصطفى وعبد القادر عطا، ج8، حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1940م، ص10، ص72، ص103، ص116؛ إبراهيم طرخان، **النظم الاقتصادية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**، القاهرة، د.ن، ص10.

(119) الأيوبي، **مضمار الحقائق**، ص115؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص18؛ ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ج1، تحقيق، محمد حامد الفقي، القاهرة، طبعة السنة المحمدية، 1952م، ص261.

(120) بنيامين، **رحلة بنيامين**، ترجمة، عزرا حداد، بغداد، المطبعة الشرقية، 1945م، ص139؛ ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، المسماة رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، بيروت، دار صادر، 1964م، ص ص231-232.

(121) ياقوت، **معجم البلدان**، ج5، ص ص45-46، 237-238.

(122) مازندران: هو اسم لولاية طبرستان، ويبدو أنه اسم محدث لها، فهي لم تذكر في كتب الأوائل. فرنارد توتل، **المنجد في الأعلام**، ط26، تحرير، لويس عقيل وآخرون ، بيروت، دار المشرق، 2003م، ص512.

(123) القزويني، **آثار البلاد**، ص ص353-354.

(124) باب الأبواب: هي مدينة تقع على بحر طبرستان وهي من الثغور العظيمة الجليلة فتحت في عهد عمر الخطاب سنة (19هـ/640م) على يد سراقة بن عمر وعبدالرحمن بن ربيعة. ياقوت، **معجم البلدان**، ج1، ص 303 – 305.

(125) طراز: كلمة فارسية تعني التطريز أو الملابس، ولاسيما الدار التي يصنع فيها القماش، وذلك عن طريق الأنوال. ابن خلدون، **المقدمة**، ط3، تحقيق، عبدالواحد وافي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1958م، ص ص210-221.

(126) ناصر خسرو، **سفرنامة**، ترجمة، مصطفى الخشاب، القاهرة: د.ن، 1945م، ص38.

(127) المقريزي، **الخطط**، ج2، القاهرة، د. ن، 1908م، ص256.

(128) عبدالمنعم ماجد، **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، القاهرة، مكتبة الأنجلو، 2010م، ص99.

(129) المقريزي، **الخطط**، ج2، ص343.

(130) المسعودي، **كتاب التنبيه والإشراف**، تحقيق، Decoeje، بيروت، دار الهلال، 1981م، ص ص400-401.

(131) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج2، القاهرة، دار الرجاء، د.ت، ص142.

(132) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص142.

(133) عبدالمنعم ماجد، **تاريخ الحضارة**، ص100.

(134) ياقوت، **معجم البلدان**، ج5، ص ص45-46، 237-238.

(135) يوسف رزق الله غنيمة، صناعات العراق في عهد العباسيين، **مجلة غرفة تجارة بغداد**، ع8، م4، 1941م، ص567؛ عبدالمنعم ماجد، **تاريخ الحضارة**، ص100.

(136) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج5، ص111؛ المنذري، **التكملة**، ج2، ترجمة 1548؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص452؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج22، ص63؛ الصفدي، **الوافي**، ج28، ص54؛ الإسنوي، **طبقات الشافعية**، ج2، تحقيق، عبدالله الجبوري، بغداد، د . ن، 1970م، ص368.

(137) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج4، ص534؛ المنذري، **التكملة**، ج2، ترجمة 1641؛

الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص443؛ **المختصر المحتاج**، ج3، ص142.

(138) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة الإسلام**، ج4، ص533؛ المنذري، **التكملة**، ج2، ترجمة 1554؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص416.

(139) مجهول، **الحوادث**، ص313.

(140) المنذري، **التكملة**، ج2، ترجمة 1700؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص488.

(141) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج4، ص243؛ المنذري، **التكملة**، ج3، ترجمة 2005؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص674.

(142) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج4، ص433.

(143) البحراني موفق الدين أبو عبدالله كان شاعراً وإماماً مقدماً في علم العربية، مصنفاً في أنواع الشعر، وعالم بالعروض والقافية، اشتغل بشيء من علوم الأوائل، وهو شيخ المستوفي صاحب تاريخ إربل، وله ديوان شعر مطبوع. ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق، إحسان عباس، ج4، بيروت، دار الغريب، 1962م، ص102.

(144) ينظر: العيوني، **ديوان ابن مقرب العيوني**، القاهرة، نشر عبدالفتاح الحلو، 1963م، ص ص224-229.

(145) مجهول، **الحوادث**، ص85.

(146) الكاغد: نوع من الورق انتشر في عهد هارون الرشيد و يصنع من القنب الأبيض، وعن طريقة صناعته انظر: الزجاجي، **عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب**، القاهرة، نسخة مصورة عن النسخة الأصلية بالمكتبة الأزهرية رقم 333864. ص 21؛ ياقوت، **معجم البلدان**، ج2، ص522.

(147) ابن خلدون، **المقدمة**، ص400-401، 421، 423.

(148) أبو الجيش عسكر بن أبي إبراهيم الحموي، وكان حموي الأصل؛ إلا أنه فضل سكنى بغداد، وتوفي سنة (606هـ/1209م) ببغداد. ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ص294.

(149) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج5، ص178-179.

(150) مجهول، **الحوادث**، ص ص55-56.

(151) منها سوق البزازين، وسوق النخاسين، وسوق العطارين، وسوق القصابين، وسوق الطعام، وسوق دار البطيخ، وسوق دار القطن، وسوق الصرافين، وسوق السلاح، وسوق الرصافة، وسوق خضير، وسوق خالد بن برمك، وسوق الرياحين، وسوق الحدادين، وسوق النجارين، وسوق الثلاثاء. ياقوت، **معجم البلدان**، ج3، ص283، 284؛ حسين علي المسري، **تجارة العراق في العصر العباسي**، الكويت، جامعة الكويت، 1982م، ص ص90-98.

(152) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، بغداد، منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف، 1957م، ص245.

(153) أحمد شلبي، **تاريخ التربية الإسلامية**، ط2، القاهرة، مكتبة النهضة، 1966م، ص6، 63.

(154) المسري، **تجارة العراق**، ص131.

(155) البَزّ: نوع من الثياب، والبزّاز: بائع البز، وسوق البزازين من أشهر أسواق بغداد . انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج2، ص 78؛ مادة بزز؛ شعبان عبدالعاطي عطية وآخرون،

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط2 القاهرة، طبعة خاصة بمكتبة الشروق الدولية، 2005م، ص54.

(156) انظر: ياقوت، **معجم البلدان**، ج11، ص192؛ الذهبي، **المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الدبيثي**، ح1، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد، مطبعة المعارف، 1951م، ص215.

(157) الحسين بن محمد بن الحسين، أبو المعالي البزاز، أحد العدول، شهد عند قاضي القضاه ابن الدامغاني، وزكّى العدلان أبو الفضل محمد بن الحسن بن الشنكاتي العباسي، وأبو المعالي أحمد بن عمر بن بكرون. ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج3، ص 195، 196؛ المنذري، **التكملة**، ج3، ترجمة 2027؛ ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ج5، ترجمة250.

(158) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج2، ص 14.

(159) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج4، ص102، 104.

(160) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج5، ص69-70؛ المنذري، **التكملة**، ج3، الترجمة 2816؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص195؛ ابن العماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج8، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ب. ت.، ص174.

(161) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج4، ص132؛ القرشي، **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ج1**،، الهند، المعارف العثمانية، 1953م ، ص321.

(162) ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج4، ص296؛ الذهبي، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، ج2، تحقيق، علي محمد البجاوي، القاهرة، د.ن، 1963م، ص642.

(163) ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج9، ص167، 289.

(164) ابن جبير، **الرحلة**، ص202.

(165) الغساني، **العسجد المسبوك**، ص471.

(166) بدري محمد فهد، **تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير**، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1973م، ص184.

(167) محمد عبدالستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، عدد128، 1988م، ص361 ؛ عبدالعزيز الدوري، نشوء الأصناف والحرف في الإسلام، **مجلة كلية الآداب**، ع1، 1959م، ص137.

(168) لأنه لم يحدث تاريخياً أن قام أحد أفراد الطبقة الاستقراطية بالعمل بأي مهنة والتنازل عن انتمائه الطبقي بمزاياه الاجتماعية فالعكس هو الذي يحدث. محمد عبدالله القدحات، **الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير**، عمان، وزارة الثقافة، 2005م، ص98.

(169) ينظر: القدحات، **الحياة الاجتماعية**، ص99؛ رفعة بنت سعيد، **الحياة العلمية**، ص92.

(170) ينظر: الغساني؛ **العسجد المسبوك**، ص544.

(171) المقريزي، **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1940م، ص46.

(172) أخذ الناس في تلك الحقبة يعتقدون بالخرافات ويؤمنون بالشعوذة. ينظر: مجهول، **الحوادث**، ص225.

(173) وقد تمثل الأمر بجماعات الشطار والعيارين الذين عاثوا في البلاد فسادا، فقد كانوا يسلبون

عمائم الناس ويأخذون ثيابهم من الحمامات ظاهراً ويقتلون من ظفروا به من اتباع صاحب الشرطة... وصار الناس معهم في هول عظيم. مجهول، **الحوادث** ، ص278.

(174) من قبيل الفيضانات فقد عانى العراق كثيرا منها إذ دمرت اقتصاده وأتت على الزرع والضرع. ينظر: مجهول، **الحوادث**، صفحات: 104 ،186 ،226 ،229 ،230 ، 267، 273، 277. وكان نتيجة لذلك أن عانت الطبقات الفقيرة من غلاء الأسعار وصعوبة الحصول على المواد الغذائية.

(175) من الأمراض الفتاكة التي لم تبارح المجتمعات الإسلامية في تلك الحقب، الطاعون، الخوانيق وغيرها. ينظر: مجهول، **الحوادث**، ص331؛ ينظر: الكتبي، **عيون التواريخ**، ج2، تحقيق، فيصل السامر، ونبيلة عبدالمنعم داوود، بغداد، وزارة الإعلام، 1977م، ص13؛ ينظر ابن تغرى بردي، **النجوم الزاهرة**، ج10، ص308.

(176) صار المتصوفة في هذا العصر (طبقة اجتماعية لها أثرها في المسيرة الاجتماعية والإسلامية من حيث الديانة والإخلاق والأعمال الثقافية. مصطفى جواد، الربط البغدادية وأثرها في الثقافة الإسلامية، **مجلة سومر**، مج10،ج2، ص222.

(177) الشهر ستاني، **الملل والنحل**، ص61.

(178) ابن العبري ، **تاريخ مختصر الدول**، ص63.

(179) القهرمانة: كلمة فارسية تعبر عن وظيفة تخص الأمور المالية من الدخل والخرج (الإيرادات والمصروفات) في دار الخلافة. ابن كثير، **البداية والنهاية** ، ج8، ص81.

(180) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج4، ط2، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة، دار المعارف، 1971م، ص 133؛ ابن أبي اصيبعة: **طبقات الأطباء**، ج2، ص130.

(181) ابن طيفور، **تاريخ بغداد في تاريخ الخلافة العباسي**، بيروت، دار الكتب العلمية، 2009، ص114؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج5، ص171.

(182) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** ، ج4 ، ص28؛ ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص74.

(183) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج2، ص74.

(184) المسعودي، **مروج الذهب**، ج2، ص112.

(185) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص49.

(186) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص325.

(187) ابن النديم، **الفهرست** القاهرة، مطبعة المعرفة، 1972، ج2، ص215.

(188) الذهبي، **دول الإسلام**، ج3، ص190.

(189) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج12، ص440؛ ابن دحية، **النبراس في تاريخ بني العباس**، تحقيق، عباس العزاوي، بغداد، دار المعارف، 1946م، ص293.

(190) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج4، ص285؛ الكتبي ، **فوات الوفيات** ،ج4، ص160.

(191) الذهبي، **سير أعلام النبلاء** ، ج17، ص172؛ القلقشندي، **مآثر الأنافة فى معالم الخلافة** ، ج2، ط2، تحقيق، عبدالستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، 1985م، ص180.

(192) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ،ج12، ص445؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة** ،ج8، ص137.
(193) ابن دحية، **النبراس** ،ج3، ص190.
(194) القلقشندي، **مآثر الأنافة** ج3، ص210؛ المقريزي، **السلوك**، ج2، ق3، ص155.
(195) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج3، بغداد، مكتبة المثنى، د. ت، ص321؛ ابن العماد، **شذرات الذهب** ، ج4، ص270.
(196) الذهبي، **دول الإسلام**، ج3، ص196.
(197) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج12، ص446؛ ابن دحية، **النبراس** ، ص293.
(198) سبط بن الجوزي، **مرآة الزمان** ، ج3، ص363؛ اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ط2، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1970م، ج2، ص181.
(199) ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ج4، ص68؛ المقريزي، **السلوك**، ج2، م4، ص165.
(200) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج12، ص446؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة** ج8 ص215.
(201) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج12، ص450؛ ابن دحية، **البنراس** ، ص372.
(202) الذهبي، **سير أعلام النبلاء** ، ج14، ص210؛ ابن العماد، **شذرات الذهب** ،ج4 ص245.
(203) السيوطي، **نزهة الجلساء**، تحقيق، صلاح الدين المنجد، القاهرة، مكتبة القرآن، 1958، ص62.
(204) السيوطي، **نزهة الجلساء** ، ص62 .
(205) السيوطي، **نزهة الجلساء** ، ص62 .
(206) ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ،ج6، ص120؛ الكتبي، **فوات الوفيات** ،ج4 ص209.

(207) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج13، ص225؛ جورجي زيدان، **تاريخ التمدن الإسلامي** ،ج4، القاهرة، د. ن ، 1902م، ص260.
(208) ابن دحية، **النبراس**، ص329؛ ابن الفوطي، **مجمع الآداب**، ج4، ص70.
(209) ابن خلكان، **وفيات الأعيان** ،ج4، ص289؛ الكتبي، **فوات الوفيات** ، ج4 ص210.
(210) ابن دحية، **النبراس** ، ص355 ؛ المقريزي، **السلوك** ، ج2، ق3، ص245.
(211) الذهبي، **سير أعلام النبلاء** ،ج20، ص175؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج8 ص62.
(212) ابن الاثير، **الكامل في التاريخ**، ج12، ص278؛ ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص272.
(213) القرشي، **الجواهر المضيئة**، ج1، ص ص451، 524، 526 ، 556.
(214) منها حديثان، الأول يقول: (سيأتي بعدي رجل يُقال له النعمان بن ثابت يُكنى أبو حنيفة، ليحيين دين الله وسنتي على يديه). والثاني يقول: (يكون في أمتي رجل يُقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل يُقال لك: أبو حنيفة، هو سراج

أمتي). محمد عجاج الخطيب، **السنة قبل التدوين**، القاهرة، مكتبة وهبة، 1963م، ص210.

(215) ابن الجوزي، **صيد الخاطر**، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، د. ت، ص57.

(216) الشوكاني، **القول المفيد**، ط1، تحقيق، عبد الرحمن عبد الخالق، الكويت، دار القلم، 1976م، ص70.

(217) الشوكاني، **القول المفيد**، ص70.

(218) أبو شامة، **مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول**، ضمن مجموع: من هدى المدرسة السلفية، الجزائر، دار الشهاب، ص ص 217-218 .

(219) أبو شامة، **كتاب المؤمل**، ص ص175 ، 190.

(220) أبو شامة، **كتاب المؤمل**، ص ص190 ، 199.

(221) أبو شامة، **كتاب المؤمل** ، ج 2، ص 1010.

(222) موفق الدين أبي محمد بن عبدالله الحنبلي فقيه محدّث ولد بجماعيل، وهى قرية بجبل نابلس بفلسطين. ثم رحل إلى دمشق، ثم إلى بغداد وسمع من علمائها وكان حجة في المذهب الحنبلي. سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ص627؛ ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ج2، ص133.

(223) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج6، ص257.

(224) أبو محمد عبد العزيز بن أبي نصر الجنابذي الأصل البغدادي المعروف بابن الأخضر، كان محدثاً وفقيهاً، اشتهر بتجارة البزار. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج22، ص31 .

(225) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج22، ص31 .

(226) يقول عنه ابن رجب: "صاحب كتاب نهاية المطلب فِي علم المذهب، وَهُوَ كتاب كبير جدا، وعبارته جزلة، حذا فِيهِ حذو نهاية المطلب لإمام الحرمين الجويني الشَّافِعِي. وفيه تهافت كثير، لأنه خلط بين أقوال أحمد والشافعي، وأظن هَذَا الرجل كَانَ استمداده من مجرد المطالعة، ولا يرجع إلى تحقيق. وَقدْ ذكر فِي كتابه، أَنَّهُ قرأ بنفسه عَلَى ابْن كليب الحراني، وَلَمْ أعلم لهُ ترجمة، ولا وجدته مذكورا فِي تاريخ". ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ص1194.

(227) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ص1194.

(228) محب الدين أبو عبدالله بن محمود البغدادي، كان محدثاً ومؤرخاً. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج22، ص 153.

(229) محمد بن عمر بن المعروف بابن الوكيل، صاحب كتاب "الأشباه والنظائر في فقه الشافعية". الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج17، ص450.

(230) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج17، ص450.

(231) أبو شامة، **كتاب المؤمل**، ص ص23، 217، 218، 227.

(232) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج 3، تحقيق، عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي، القاهرة، نشر مصطفى الحلبي، 1966م، ص ص 365-366 .

(233) الكتبي، **فوات الوفيات**، ج 2، ص ص 3، 302؛ الصفدي، **الوافي في الوفيات**، ج 2، ص307.

(234) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ص ص 86، 87، 90؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 23، ص ص 180، 183، 362 ؛ **العبر في خبر من عبر**، ج5، تحقيق، صلاح المنجد، الكويت، د. ن، 1960م، ص 225؛ ابن كثير، البداية **والنهاية**، ج 13، ص: 164، 201؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص465 .

(235) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 23 ص، 183؛ **العبر**، ج 5، ص 225 ؛ ابن كثير، **البداية**، ج 13، ص203؛ والسيوطي، **تاريخ الخلفاء** ، ص456.

(236) الذهبي ، **سير أعلام النبلاء**، ج 23 ص180 ، 362 .

(237) الذهبي ، **سير أعلام النبلاء**، ج 23 ص: 362؛ السبكي، **طبقات الشافعية**، ج 8، ص263.

(238) ابن طباطبا، **الفخري**، ص273.

(239) ابن طباطبا، **الفخري**، ص273.

(240) ابن طباطبا، **الفخري**، ص274.

(241) ابن الوردي، **المختصر**، ج 2 ص 282.

(242) ابن تغري بردى، **النجوم الزاهرة** ، ج 7 ص 49.

(243) ابن تغري بردى ، **النجوم الزاهرة** ، ج 7، ص 49، ج 7، ص 50.

(244) مجهول، **الحوادث**، ص ص157 ، 158.

(245) الهمذاني، **جامع التواريخ** ، **تاريخ المغول**، مج 2، ج 1 ، د.ن، د.ت، ص ص256 ، 257، 279، 280.

(246) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 13 ص 201؛ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج 14، تحقيق، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1995م، ص 166.

(247) بنيامين، **الرحلة**، ص135؛ مجهول، **الحوادث**، ص69؛ آدم متز، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج2، ترجمة، عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، د . ن ، 1940م، ص58.

(248) بنيامين، **الرحلة**، ص135.

(249) عبدالعزيز الدوري، **تاريخ العراق في القرن الرابع الهجري**، ط2، بيروت، دار المشرق، 1974م، ص33.

(250) مجهول، **الحوادث**، ص68.

(251) مجهول، **الحوادث**، ص68؛ والجهبذ هو: الخبير بغوامض الأمور والمعارف بالنقود والأشياء الثمينة كالمجوهرات. شعبان عبد العاطي، **المعجم الوسيط**، ص141.

(252) ابن الساعي، **الجامع المختصر**، ج9، ص132.

(253) مجهول، **الحوادث**، ص11.

(254) مجهول، **الحوادث**، ص67.

(255) سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان**، ج8، ق1، ص378؛ الأيوبي، **مضمار الحقائق**، ص73.

(256) الأيوبي، **مضمار الحقائق**، ص74.

(257) أبو الفضل جبريل بن زطينا، وقد أسلم قبل وفاته (626هـ/1228م)، وكان من أشهر العلماء في الحساب، وعمل كاتب ديوان المخزن سنوات طويلة منذ عهد الناصر حتى وفاته، ولما أمر الناصر بعدم استعمال اليهود والنصارى أسلم مع جمع من أهل ديانته ومنهم أخوه. ابن الساعي، **الجامع**، ج9، ص161.

(258) أبوالقاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادي المعروف بابن الأشقر، قرأ عليه الظاهر بالله القرآن، كما قام بمهمة تعليم أبناء الخليفة الشيخ أبو طالب بن المبارك الكرخي، وقد قام بتعليمهم الخط والقراءة والفقه. انظر: ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص190؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج21، ص226؛ ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ج4، ص211.

(259) ديوان العرض: هو ديوان الجيش. مجهول ، **الحوادث**، ص99.

(260) درب القيار: محلة بالجانب الشرقي وصفها ياقوت بأنها "كبيرة مشهورة"، وذكر في مادة (جنابذ) أن شيخه أبا محمد عبدالعزيز بن محمود الجنابذي كان يسكن قرب درب القيار من محال نهر المُعلّى في شرقي بغداد، وهو ما يدل على أن درب القيار كان بين محلة المقتدية ومحلة خرابة ابن جردة، ولما كان من الثابت في خطط بغداد أن بين هاتين المحلتين محلة يقال لها الجعفرية. ياقوت، **معجم البلدان**، ج5، ص325؛ مجهول، **الحوادث**، ص334.

(261) مجهول، **الحوادث**، ص334؛ القزاز، **الحياة السياسية**، ص192.

(262) الجاثليق: لفظ يوناني (Gatholicos) معناه العمومي، والمراد به الرئيس الديني الأعلى عند كنيسة المشرق في أيام الساسانيين والخلفاء العباسيين، ويقابله في وقتنا هذا البطريرك Patriarch. انظر: ابو الفرج الاصفهاني: **الديارات**، تحقيق، جليل العطية، لندن، دار رياض الريس للكتب والنشر، د. ت، ص 262.

(263) ابن أبي أصيبعة، **مختصر الدول**، ص405؛ ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ج2، ص388؛ جان موريس فييه، **أحوال النصارى في خلافة بني العباس**، بيروت، دار المشرق، 1990م، ص ص362، 369، حاشية (58).

(264) ينظر: رفعة بنت سعيد، **الحياة العلمية**، ص119.

(265) مجهول، **الحوادث**، ص 239.

(266) له ترجمة مفصلة أوردها عمرو بن متى في "بطارقة كرسي المشرق 119"، ذكر فيها أنه دفن في البيعة الجديدة التي بناها بدار الخليفة، وهي دار الدويدار منحها لهم المغول بعد احتلالهم بغداد، وكان الجاثليق مرمكيخا أديباً فاضلاً. مجهول، **الحوادث**، ص342، حاشية (4)؛ انظر: جان موريس فييه، **أحوال النصارى**، بيروت، مجلس كنائس الشرق الأوسط، دار المشرق، 1990م، ص362.

(267) محمد بن يحيى بن علي بن الفضل المعروف بابن فضلان، الفقيه الشافعي ابن الفقيه، تفقه على أبيه وأحسن الاشتغال وتكلم في المسائل والمناظرات وأجاد الكلام، ودرّس مع أبيه بمدرسة فخر الدولة المظفر. ابن الدبيثي، **ذيل مدينة السلام**، ج2، ص172؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص57؛ **العبر**، ج5، ص126.

(268) يذكر هنا نصرانيان آخران هما: ابن كاتب القيصر، إبراهيم ابن أبي الثناء علم المُلك، وأخوه الشاعر الأديب تاج الملك إسحق. ينظر: الصفدي، **الوافي**، ج5، ص340، رقم 2409؛ جان موريس، **أحوال النصارى**، ص376.

(269) هبة الله بن جبريل بن زطينا، وهو ابن جبريل بن زطينا الذي كان قد أعلن إسلامه، ويذكر موريس فييه نصاً: "وهو الذي لم يتبع والده جبريل في الإسلام"، ينظر: جان موريس، **أحوال النصارى**، ص358.

(270) جان موريس فييه، **أحوال النصارى**، ص358.